تَعْلِيقَاتٌ

حَوْلَ تَفْسِيرِ الإمام النَّسَفِيِّ

لِسُورَةِ الْكَهْفِ

لِلْإِمامِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الله سِرَاجِ الدِّينِ الحُسَيْنِيِّ

جَمْعُ وتَقْدِيمُ

وَلَدِهِ المهنْدِسِ الشَّيْخِ

مُحَمَّد مُحْيِي الدِّينِ سِرَاجِ الدِّينِ

رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ورَضِيَ عَنْهُمْ

تَعْلِيقَاتٌ حَوْلَ تَفْسِيرِ الإمام النَّسَفِيِّ لِسُورَةِ الْكَهْفِ

لِلْإمامِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الله سِرَاجِ الدِّينِ الحُسَيْنِيِّ

جَمْعُ وتَقْدِيمُ

وَلَدِهِ المهنْدِسِ الشَّيْخِ

مُحَمَّد مُحْيِي الدِّينِ سِرَاجِ الدِّينِ

رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى ورَضِيَ عَنْهُم

تَنْسِيقُ

تِلْمِيذِهِمَا

د. بَكْرِي بِرِيمُو السَّمَّان

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة

إلى العَلّامة الكبير والعارف الشهير

الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ

عبدِ الله سِراج الدِّين الحُسيني

وإلى ولده الكريم

فريد عصره ووحيد دهره

فضيلة الشيخ المهندس

محمد مُحْيي الدِّين سِراج الدِّين

رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.

الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا؛ إنك أنت العليم الحكيم.

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ آمين.

الحمد لله رب العالمين.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١﴾.

في هذه الآية يحمد الله تعالى نفسه، ويعلِّمنا أن نحمده، فهو سبحانه يحمد نفسه لأنه جل جلاله أهل أن يُحمَد ...

ولِمَ حَمِد سبحانه نفسه هنا وفي بعض السور التي افتتحها بالحمد، وافتتح بعض السور بالتسبيح كـ (المسبِّحات) فقال تعالى: ﴿سَبَّحَ﴾، ﴿يُسَبِّحُ﴾، ﴿سَبِّحِ﴾؟

إن في افتتاحه سبحانه لهذه السورة بالحمد تنبيهاً لنا إلى مواقع حمد كبرى، فإذا كان هو تعالى يحمد نفسه عليها فنحن أحق أن نحمده عليها.

فحمد سبحانه نفسه حين خلق الخلق وفطرهم فقال عز من قائل:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وقال جل وعز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لأن نعمة الوجود نعمة كبرى؛ إذ نقلكم سبحانه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى فحق أن يحمد نفسه وحقّ لنا أن نحمده جل وعلا.

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ فحمد سبحانه نفسه لأنه رب العالمين، وكلمة (الرب) لها معان عديدة، كلها مجتمعة في جناب الحق جل وعلا، وبعض المعاني قد تطلق على المخلوق بالتقييد.

فكلمة (الرب) تُطلَق على:

(الخالق) واختص الله بهذا المعنى فقال سبحانه وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

وتطلق على (السيد)، فالله تعالى هو السيد إذ له جل جلاله سيادة الحق وسيادة الألوهية، والخلق كلهم عباده جل وعلا.

وتطلق على (المالك) فيقال: "رب الدار" أي مالكها، وإن مالك العالمين هو الله تعالى.

وتطلق على (المربي) فالله تعالى هو مربِّي العالمين.

وتطلق على معنى (الثبوت والدوام) فالله تعالى ثابت البقاء والوجود أزلاً وأبداً.

فهو سبحانه وتعالى يُحمد على هذه المعاني لأنها نعم كبرى.

ومن جملة تربيته سبحانه للعالم أنه جل وعلا أنزل عليهم كتاباً فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، فافتتح سبحانه سورة الكهف بالحمد على نعمة كبرى وهي إنزال الكتاب على هذه الأمّة.

واعلم أن أعظم نعمة مَنَّ الله تعالى بها على هذا العالم: نعمة العلم بالله وآياته جل جلاله فقال عزَّ مِن قائل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ فهذه النعمة هي أعظم مظهر للرحمانية وللرحمة الإلهية التي عمّت الخلائق.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣﴾ فقدَّم سبحانه نعمة العلم على نعمة الخلق لأن المخلوقات كثيرة كالحيوانات وغيرها ولا علم عندها، لكن علم القرآن الكريم أعظم نعمة.

فإنزال الله تعالى الكتاب على عبده ورسوله ﷺ ليعلِّم الناس ما فيه .. هذا الإنزال هو نعمة كبرى حَمِدَ الله تعالى عليها نفسه، ونحن أحق أن نحمده عليها لأن نعمه جل جلاله متعلقة بنا.

وقد يتساءل إنسان:

(كيف يحمد الله تعالى نفسه ويثني على نفسه وقد نهى عباده أن يحمدوا أنفسهم أو يعظِّموها فقال جل وعلا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾)؟

والجواب: إن المخلوق لو حمد نفسه وعظَّمها ومدحها على الكمال الذي عنده فالكمال هذا ليس من عنده بل هو من عند الله تعالى فبدلاً من أن يحمد نفسه يجب عليه أن يحمد الله الذي أعطاه.

فعندما تقول: "أنا عالم" "أنا غني".. هذه الكمالات ليست من نفسك بل من المعطي جل جلاله فاحمده عليها، وهذا هو التحدث بنعمة الله بشكره عليها، فالتحدث بنعمة الله تعالى ممدوح، ولكن تزكية النفس بدعوى المدح والتعظيم أمر نهى الله تعالى عنه.

أما الحق جل وعلا فعندما يثني على نفسه فكمالاته من ذاته جل جلاله، لم يكتسبها من غيره، فحقّ له أن يحمد نفسه عليها إذ ليس لأحدٍ منة عليه تبارك وتعالى.

فحمده لنفسه كما جاء في قوله جل جلاله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو حمد قديم لإله قديم، وحمد غير متناه لإله لا تتناهى كمالاته، فهذا هو الحمد اللائق به سبحانه وتعالى.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ﴾: إذا أُفردت كلمة ﴿أَنزَلَ﴾ فالمراد: التنزيل التدريجي، أما إذا اجتمعت مع كلمة ﴿نَزَلَ﴾ فتختلفان في المعنى ويكون عندئذ معنى ﴿أَنزَلَ﴾: أي: جملة واحدة ، وقد يطلق (الإنزال) على (التنزيل) و(التنزيل) على (الإنزال) حسب الآيات.

﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾: هو سيدنا محمد ﷺ سيد العِباد والعُبّاد، صاحب مقام العبدية الخاصة لرب العالمين وهذا المقام هو أشرف المقامات.

واعلم أن (العبدية) و(العبودية) متقاربتان في المعنى، أما العبودية فقد وردت في اللغة وعلى لسان القوم، والعبادة هي مقتضى العبودية..

فالعبودية والعبدية عامة للكل إذ إن جميع المخلوقات هم عباد الله -شاؤوا أم أبوا- قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ يعني الآن الكل عباد له جل وعلا ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ أي يوم القيامة للحساب..

فهم عبيد كوناً -اعترفوا أم لم يعترفوا- لأنهم كلهم تحت إرادة الله وقهره وتصرفه، وهذه العبدية الكونية فيهم لا يتعلق بها شرف رتبة لأن الكافر عبد لله لكنه لا يعترف بها فهي ليست شرفاً له.

وهناك عبدية وعبودية لله اختيارية ليست قهرية وهي عبدية المؤمن حيث اعترف بأن الله ربه واعترف بأنه عبد لله تعالى فشكر اللهَ على ذلك فذلَّ وخضع له وأطاعه سبحانه وتعالى، والشرف يتعلق على هذا المعنى من العبدية ، وهي على مراتب لأن هذه العبدية تجعل لك الشرف والكرامة عند الله تعالى إذا قمت بواجبها -وهو العبادة- لأنك ما دمت عبداً والله ربك وللرب حق على عبده فإذا قمت بهذا الحق فأنت عبد تشرفتَ بعبادته التي هي مقتضى العبودية فصرت عبداً عابداً له جل جلاله، فالعبادة مقتضى وموجب العبودية، فقيامك بالعبادة هو موجب عبديتك ، ولا مِنَّة لك على الله تعالى .

فالعبادة موجَب العبودية والحروف واحدة، فإن ولّدت العبودية العبادة فهذا العبد مُشَرَّفٌ عند الله، وإن لم تولّدها فهذا العبد جبار، واقِعُه العبودية ولكنه يتلبس بلباس الربوبية والفرعونية بعدم اعترافه لله بربوبيته، والحال أنه يجب عليه أن يلبس العبادة التي هي مقتضى العبودية.

فالعابد: عبدٌ أطاع مولاه وذَلَّ له على أنه عبد ذَلَّ وخضع لربٍّ، فروح العبادة ملاحظة أنك عبد وأن الله رب ، فلو أن إنساناً ركع لإنسان أو سجد له ولاحظ أنه عبد يسجد لرب فقد كفر، أما لو لاحظ أنه عبد ويسجد لعبد تعظيماً له وتكريماً فقد فَسَقَ -في الشرع المحمدي ﷺ- لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن أن يسجد مخلوق لمخلوق تعظيماً له، أما في الشرائع السابقة فكان هذا أمراً مشروعاً عندهم

كما سجد الملائكة لآدم عليه السلام تكريماً له، وكما سجد يعقوب عليه السلام وأولاده ليوسف عليه السلام سجود تكريم وتعظيم سجوداً حقيقياً وليس انحناء.. قال تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗا﴾ فهيئة السجود وصورته واحدة لكن الفارق بينهما ملاحظة أن أحدهما سجود عبادة لرب، والآخر سجود تعظيم وتكريم لمخلوق.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن السجود لغير الله -سداً للذرائع-.

فالعبادة مقتضى العبودية وهي حق الله على عباده بأن يعبدوه، وهذه العبودية المصحوبة بالعبادة هي التي ستشرّفك وتُوْصلك إلى الله تعالى ، وفضل المخلوقات ومراتبهم عند الله تعالى على قدر عبوديتهم لله الاختيارية التي مقتضاها العبادة.

وإن أفضل عبدٍ لله عَبَدَ الله وخضع له حتى انمحت آثاره في الله جل وعلا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبدية في أعلى المراتب التي خصَّه الله تعالى بها، فخصه بالقرآن العظيم فقال جل وعلا: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾

ووصفه سبحانه بذلك في مقام الدعوة العامة إلى الله تعالى.. قال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾

وفي مقام الإسراء.. قال جل وعلا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾

وفي النصر الأكبر.. قال عز من قائل: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾

وفي مقام التحدي.. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾

وفي مقام الشفاعة الكبرى يعتذر الأنبياء عليهم السلام عن التقدم إلى مقام الشفاعة ويقول سيدنا عيسى عليه السلام للناس: [لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَلَكِن ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ عَبْدًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ][1] فجميع هذه المقامات الكبيرة لم يَنَلْها ﷺ إلا بعبوديته لله جل جلاله.

واعلم أن العبودية لغير الله تعالى وصف ذل، أما العبودية لله فهي العز، لأن الله رب، والتقرب إلى الرب بصفات الربوبية -مِن الكبرياء والعزة- يكون كتقرب رب إلى رب، ولا رب غير الله سبحانه وتعالى الفرد الصمد.

فالتقرب إلى الله تعالى يكون بالتذلل بين يديه لأنه سبحانه عزيز، ويكون بالافتقار إليه لأنه جل جلاله غني ، فإذا تقربت إلى الله بصفات الخضوع والذل والانكسار ظلَّلَك بظل ربوبيته حتى تصيرَ به، وتنمحي آثارك كلها وتبقى به جل وعلا، فتكون قوّتك وسمعك وبصرك به تبارك وتعالى... جاء في الحديث القدسي قوله تعالى:

[وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ][2]...الحديث

فصفة العابد أن يكون متذللاً خاضعاً لله تعالى في كل أموره، ولا بد للعابد الخاشع أن تظهر عليه آثار العبادة، فلو خشع في الليل لظهر أثر ذلك على وجهه بالنهار، وتواضعه وذله لله لا يعني أن يتماوت في مشيته بل يمشي متواضعاً لعباد الله المؤمنين،

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

[2] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

قال تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ فعندئذٍ يرفعه الله تعالى لأن التواضع للمؤمنين هو تواضع لربهم، أما غير المؤمنين فالتعزز عليهم واجب.

قال أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه أثناء مناجاته لله تبارك وتعالى:

(يا رب بِمَ أتقرب إليك) ؟

فقال سبحانه له: (دع نفْسك، وأقبل بلا نفْس)[1].

قال أبو يزيد: (فجئت بلا أنا) أي: انمحت الـ "أنا".

وقال رضي الله عنه: (طرقت الأبواب على الله تعالى) -أي: أبواب الصائمين والذاكرين والمتهجدين ـ (فوجدتها ملأى، فقلت:

يا رب بماذا أتقرب إليك وأدخل عليك؟

فقال سبحانه:(تقرّب إليّ بما ليس فيَّ)[2]

أي: بصفة ليست موجودة فيَّ -وهي صفة الذل والانكسار-

قال رضي الله عنه:

(فطرقت باب الذل والانكسار ودخلت إلى الله، وتركت الناس على الأبواب).

لأن المتهجد واقف مع صلاته والذاكر مع ذِكره -أي: واقفين مع أنفسهم- أما باب الذل والانكسار فقد خلع صاحبُه جميع ما عليه وأفلح.. كما قيل:

(متى خَلَعْتَها أفلَحْتَ).

---

[1] انظر (الفتوحات المكية) ٦/ ٤٤٨ للشيخ الأكبر سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه

[2] انظر (تفسير الآلوسي) ٨/ ٤٨

واعلم أن طريق الذل والانكسار إلى الله تعالى يجب أن يكون مع الصحو واليقظة واتباع الشرع المحمدي ﷺ، وهذا شأن العباد الكُمَّل فليس بينهم وبين الله "أنا" ولا "نفْس".

أما في تعامله مع الناس فيؤدي لكل ذي حق حقه بعقل وحكمة دون سلب، لأن الجذب يوقف صاحبه عن الترقي في المقامات، وأما الصحو فيرفع صاحبه إلى أعلى المقامات.

قوله تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن الكريم، فلم ينزل مكتوباً كتوراة موسى عليه السلام -إذ أعطاه الله تعالى إياها مكتوبة في ألواح، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾- ولم ينزل جملة واحدة، فلِم أطلق سبحانه عليه وصف ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؟

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ اسم للقرآن الكريم لأن القرآن الكريم له أسماء فهو (كتاب) و(قرآن) و(فرقان)، فهو كتاب من الكَتْب -وهو الجمع- فالقرآن الكريم جامع لكل ما فيه خير العباد والبلاد من عقيدة وأخلاق و....

فهو الكتاب الجامع لما يحتاجه العالم، ولم ينزل جملة بل تدريجياً، فأطلق عليه سبحانه وصف ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على اعتبار ما كان أو ما يكون، فهو مكتوب في اللوح المحفوظ.. قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ فهو كتاب قبل نزوله، وهو كتاب بعد ما نزل لأنه كتِب أي جُمع في الصحف فصار مصْحفاً،

فاجتمع المعنيان فيه: المعنى الكتابي في الصحف، والمعنى الكتابي الجمع لأنه جمع كل ما يحتاجه العالم.

واعلم أن كلمة (قَرَأَ) تدل على الجمع [1] فالكتاب هو قرآن؛ مِن (قرأ) أي: جمع الكلام، وكذلك: قرأه .. قال تعالى: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ أي قراءة القرآن وقت الفجر.

ويقال له (قرآن) أيضاً مِن (قرأ): أي: (تلا) لأنه يُتلى .

وهذه السورة -سورة الكهف- ورد فيها أن من قرأ عشر آيات منها حفظه الله تعالى من الدجال واختلفوا: أَهي الآيات مِن أولها أم من آخرها؟

ففي رواية:

[من قرأ عشر آيات من أول الكهف عصم من فتنة الدجال][2] وفي رواية: [مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ][3]

وفي رواية: [من قرأ عشر آيات من الكهف عصم من فتنة الدجال][4] فيحسن للإنسان أن يحتاط فيقرأ عشر آيات من أولها وعشر آيات من آخرها.

والمراد من الدجال: دجال كل زمان.

---

[1] والقرآن جامع لما يحتاجه البشر

[2] انظر مصنف عبد الرزاق

[3] انظر مسند الإمام أحمد ٢٦٢٤٤

[4] انظر السنن الكبرى للنسائي

أما فضل قراءتها يوم الجمعة وليلتها فالأحاديث كثيرة في ذلك[1].

وقد افتتح الله تعالى هذه السورة بحمده لنفسه على إنزاله القرآن الكريم الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة، وفي هذا تعليم لنا أن نحمده سبحانه على هذه النعمة الكبرى.

ولله تعالى حِكَم في افتِتاحه بعض السور بالحمد وبعضها بالتسبيح وبعضها بالحروف؛ حسب المناسبات الخاصة.

قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾: (العِوَج): ضد الاستقامة في المعاني

أما (العَوَج) فهو ضد الاستقامة في الأعيان ـ أي:الذوات ـ فتقول: (في رأيه عِوَج، وفي عصاه عَوَج)، فهذا القرآن لا اختلاف فيه، ولا تناقض بين آياته وإخباراته، ولا يُنَاقَض: أي لا يمكن أن يخبر القرآن عن شيء ويأتي الواقع خلاف ما أخبر، بل إن إخباراته هي الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ فلما نفى سبحانه عن القرآن الاعوجاج دَلَّ على استقامته فقال جل وعلا: ﴿قَيِّمٗا﴾ فلِمَ قال سبحانه: ﴿قَيِّمٗا﴾ في حين نفى عنه الاعوجاج؟

---

[1] قال الإمام الشيخ عبد الله سراج الدين رضي الله عنه في كتابه (الصلاة في الإسلام): كما وأنه ينبغي للمسلم أن يقرأ السور التي ندب إليها وبيّن فضلَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في يوم الجمعة وليلتها، ومن ذلك: ما ورد عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين] رواه النسائي والبيهقي مرفوعاً، ورواه الدارمي في مسنده موقوفاً على أبي سعيد ولفظه قال: [من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق].

هذا من باب التأكيد وتثبيت أنه لا اعوجاج فيه أبداً، فقد يكون هناك كتاب فيه استقامة وفيه اعوجاج، أو قد يعتريه يوماً ما اعوجاج، أما القرآن الكريم فهو مستقيم لا اعوجاج فيه، ولا يعتريه الاعوجاج أبد الآبدين، فلما أتى بكلمة وبنظيرها دل على التأكيد والدوام.

وكلمة: (القيّم) قد تطلق على (المستقيم).. قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ أي دين الملة المستقيمة.

أو: (قيِّماً على غيره) فيقال: (فلان قيِّم على فلان) أو (قيِّم على الجامع) أو (قيِّم على الوقف) أي: متولي أمره..

فالقرآن قيِّم على الكتب الإلهية السابقة وشاهد على صحة ما ورد فيها عن الله تعالى ومُبطل لما حُرِّف منها.. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ فالقرآن مهيمن على كل كتاب سابق بمعنى أنه حاكم عليه وشاهد عليه، وربما يكون هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿قَيِّمًا﴾ أقوى لأن فيه معنى التأسيس، والقاعدة اللغوية تقول: (التأسيس مُقَدَّم على التأكيد) أي: إذا ورد معنيان لكلمة واحدة وفي أحدهما تأكيد وفي الآخر تأسيس فيقدم معنى التأسيس.

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾.

(بَشَر) و(بَشَّر) في اللغة بمعنى واحد وهو: الخبر السارّ، وسمي بذلك لأن البشَرة تلين له، والبِشارة تعطي طراوة للبشرة بخلاف الإنذار فيعطي انقباضاً.

وسمي الإنسان (بشراً) لأن بَشَرته ظاهرة، أما الحيوانات فبشرتها مغطاة بالشَّعر.

أما قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ وقوله جل وعلا: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤﴾ فهذا من باب التهكم بهم، أي: إذا كان لهم بشارة فبشرهم بالعذاب الأليم -تهكماً واستخفافاً- لأن الكفار ليس لهم بشرى، وإذا كانوا يرجون بشارة فبشرهم بالعذاب، فتسمى (استعارة تهكمية) وهي: استعارة كلمة (بشرى) في موضع الإنذار تهكماً.

قوله تعالى: ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾: وهو نعيم الجنة المؤبَّد.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ لم يذكر سبحانه المنذَر به لأنه ذكره سابقاً وهو قوله جل جلاله: ﴿بَأْسًا شَدِيدًا﴾ واكتفى بذِكر الإنذار.

قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ﴾ أي: ليس لهم دليل يوجب العلم والجزم بأن لله ولداً، وما هي إلا أوهام قالوها وضلالات اعتقدوها، وذلك لأن الإدراك إما وهم وإما شك أو ظن أو علم، فالوهم قريب من الشك، والظن إدراك الطرف الراجح، أما الوهم والشك فهما: إدراك الطرف المرجوح.

فإدراكات الإنسان لا تخلو من أحد هذه الأمور، فإما وهم بمعنى خيال، أو شك بمعنى احتمال، أما الظن والعلم فهما الجزم والقطع بالأمر.

فالذين زعموا أن لله ولداً لا دليل عندهم على ذلك.

واتخاذ الله ولداً أمر محال، والعلم يتعلق بالمحال على أنه محال، ولو فرضنا جدلاً أنه سبحانه جاز عليه التجزؤ فلمَ لم يكن له أكثر من ولد؟!

ولِمَ لم يتجزأ هو عن غيره أيضاً ؟ !

فلو كان عيسى ابناً لله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ فالولد جزء من أبيه فيجب أن لا يأكل ولا يشرب، بل الحق أن عيسى وأمه عليهما السلام كانا كما أخبر سبحانه عنهما: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ الآية .

وهكذا فقولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ لا دليل يوجب العلم به، وما هو إلا ضلال وأوهام.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ : والكلمة هي قولهم: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ أو أن الله وَلَدَ، فهذا الكلام سماه سبحانه كلمة لأن الكلمة قد تطلق ويراد بها كلام.

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: إذ كل ما يخطر ببالهم يقولونه ويتفوهون به.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ : إن يقولون إلا قولاً كذباً .

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

﴿بَٰخِعٌ﴾: قاتل ومعرِّض نفسك للهلاك، وفي هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتخفيف عنه لأنه صلى الله عليه وسلم كان يحزن على إعراضهم وكفرهم بعد أن يدعوهم ويبيّن لهم، كما جاء ذلك في غيرها من الآيات كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ وقوله جل جلاله:﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧﴾، وفي هذا دليل على شدة رحمته صلى الله عليه وسلم إذ إنه كان يأسف على الكفار ويحرص على إيمانهم ويحزن من إعراضهم -رحمةً منه ﷺ بهم لأنه ﷺ أرحم بهم من أنفسهم- فما بالك برحمته ﷺ بالمؤمنين الذين آمنوا به واتبعوه ﷺ؟!

وكيف منزلتهم عنده ﷺ؟!

نعم، يُسَرُّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفرح بهم، أما الكفار فيتأسف عليهم، لأنه صلى الله عليه وسلم أعظم مظهر رحماني في الكون للصفة الرحمانية وهو قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾، وقوله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾، وقوله جل وعلا ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ فقد ظهرت فيه صلى الله عليه وسلم رحمة الله الواسعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾، وفي الآية السابقة قال سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾

فقد سَلَّى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم وخفّف عنه الأسف والحزن من إعراض المشركين عن الحق ثم بيَّن له العلة والسبب الذي صرف قلوب الكفار عن قبول الحق وعدم إيمانهم بهذا الحديث -الذي هو القرآن [1]- والسبب في إعراضهم هو: زينة الدنيا وزخارفها .

فجملة: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ هي جملة تعليلية معلِّلة لما سبق، وهذا يسمى في البلاغة جملة منفصلة وليست متصلة -بمعنى أنها ليست معطوفة على ما قبلها- فكأن سائلاً سأل : لِمَ أعرضوا عن الحق ولم يقبلوه؟

فجاء الجواب : ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا﴾ أي: لأنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ۝١٠﴾

---

[1] القرآن الكريم يقال له: (حديث الله) ولكن لا يدل على الحُدوث إنما يدل على حدوث نزوله، فهو حادث النزول؛ وليس الحدوث هنا بمعنى أنه مخلوق .

أي: لأنه كان غفاراً ، فهي جملة تعليلية، والجملة التعليلية تأتي منفصلة وليست متصلة معطوفة .

فهذه الزخارف الدنيوية شغلت قلوبهم فأعرضوا عنك يا محمد فلا تحزن عليهم.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾: ﴿مَا﴾ لما لا يعقل، أما (مَنْ) فهي للعاقل .

فما هو الذي جعله الله تعالى على الأرض زينة لها؟

هي المواليد الثلاثة وهي في اصطلاح العلماء: (الحيوان والنبات والمعدن).

ويرد هنا سؤال: هل الإنسان يدخل في هذه المواليد الثلاثة؟

الجواب: لا، لأن الإنسان هو المختبَر المبتَلَى بها، وهذه المواليد هي موضع الابتلاء وبها يبتلى الإنسان، فجعل الله هذه المواليد [1] فتنة للإنسان: هل سيشكر الله عليها ويستعملها فيما شرعه، أم أنه سيكفر ويطغى؟

قال تعالى: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾

بعض المفسرين المتقدمين فَسَّر قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ بأنَّ العلماء والأولياء هم زينتها، وهذا التفسير مردود لأن الله تعالى قال: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ فهل سيبتلي الله عباده بالعلماء والأولياء؟!

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝٨﴾ فهل هذا يعني أنه سبحانه سيمسخ ويمحق العلماء والأولياء؟!

هذا المعنى الإشاري ليس صحيحاً، و: (إذا ناقضت الإشارةُ العبارةَ فهي خَسارة).

---

[1] لأنها تتوالد وتتجدد بقدرة الله تعالى

قوله تعالى:﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾: معنى (نبلو): نختبر، يقال: (بلاه) و(ابتلاه) أي: اختبره، قال تعالى : ﴿وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ليختبرهم.

فالبلاء والابتلاء في القرآن الكريم يعني الاختبار.

فما هو الاختبار؟

تقول: (اختبر فلان فلاناً) أي صار المختبِر ذا خبرة بما عند المختبَر؛ خبيراً به .

﴿لِنَبۡلُوَهُمۡ﴾: لنختبرهم..

ولكن أليس الله بعالمٍ بهم؟

إنه تعالى أعلم بهم، قال جل وعلا: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾

إذاً فما المراد هنا؟

المراد: لنعاملهم معاملة المختبر بالتكليف والشرائع والحلال والحرام.

وهنا قد يرد إشكال:

لمَ يعاملهم سبحانه معاملة المختبر ما دام هو سبحانه يعلم نتيجة تكليفه لعباده؛ يعلم مَن المحسن ومن المسيء؟

نعم، يعاملهم سبحانه معاملة المختبر حتى يقيم الحجة عليهم بفعلهم ويجازيهم على ما يصدر منهم، قال سبحانه: ﴿وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٩﴾

فلو جازاهم سبحانه على موجب علمه بهم -دون أن يختبرهم- لَظَلَمَهم، ولا يجوز مؤاخذة الآخر بموجب العلم فيه قبل أن يصدر منه عمل يوجب المؤاخذة، فرتَّب سبحانه الجزاء والعقاب على موجب عملهم باختيارهم.

ومِن جملة عِلمه سبحانه بهم: أنهم يعملون ذلك باختيارهم، وأن ما لا اختيار لهم فيه فلا مؤاخذة عليه.. كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾، وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٥﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ عُرِف: (وأيّهم أسوأ عملاً) بالمقابلة، فلما ذكر سبحانه الأحسن دل بالمقابلة على أن هناك سيّئاً وأسوأ ..كما قال تعالى : ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وهي البيوت والألبسة التي تقي من الحر، وهي تقي من البرد أيضاً -وإن لم يذكر سبحانه البرد إنما عُرِف بالمقابلة- وهذا معروف في علم البلاغة. وأهمية هذا العلم لتفسير القرآن الكريم كأهمية علم النحو لأن القرآن الكريم مبني بالإعجاز على الإيجاز فلا بد لفهم كلام الله تعالى مِن معرفة علمَي البلاغة والنحو لأن الآيات القرآنية مرتبطة ببعضها ومُحْكَمة، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ...﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ٨﴾:

﴿صَعِيدٗا﴾ أي: ملساء

﴿جُرُزًا ٨﴾ أي: يابسة

فبيّن سبحانه أن زينة الدنيا وزخارفها مؤقتة ومتغيرة لا تدوم على حال، فالنبات الأخضر في الربيع هو يابس في الصيف ....

والحيوانات تفنى وتتوالد....

والمعادن تنفد وتتجدد وتتوالد ....

وهذه الآيات ظاهرة مرئية الآن للإنسان لأنه سبحانه قال: ﴿لَجَٰعِلُونَ﴾ وهذه الكلمة اسم فاعل وهو يحتمل الحال ويحتمل الاستقبال لكن غالباً إذا دخلت عليه اللام يدل على الحال – أي: الآن- كما تقول: (إني لقائم) يعني الآن .

فزينة الدنيا هذه وزخارفها التي جعلها الله عليها -وهي المواليد الثلاثة وما يتفرع عنها من أنواع- ما هي إلا مؤقتة.

وفي هذا عبرة وتذكرة للإنسان بأن الأرض الخضراء تصبح يابسة ملساء، وغير هذا من الآيات الدالة على قدرة الله تعالى .....

فهذه المقدمة في بيان قدرة الله تعالى لتدخل في النتيجة وهي قوله تعالى:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾:

فما دامت آيات الله تعالى وكيفية تصرفه تعالى في المواليد الثلاث بأنواعها مرئية لك وظاهرة فإن من جملة آياته سبحانه: آية أجراها مع طائفة من بني البشر أنامهم مدة مؤقتة ثم أيقظهم، فلا تستبعد ذلك على الله ولا تنكره؛ لأن آيات الله العجيبة كثيرة ومن جملتها: ما أجراه على أهل الكهف.

فآياته تعالى المرئية لهم أعجب من آية الكهف وليست هي أعجب الآيات.

وظاهر الخطاب في الآية للنبي صلى الله عليه وسلم لكنه ﷺ غير مقصود لأنه ﷺ لم يدخله العجب من ذلك -فهو يعرف قدرة الله عز وجل- وإنما المقصود الأمّة، وهذا كثير في القرآن الكريم فكثيراً ما تَرِدُ الخطابات موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكنه غير مقصود بها كقوله تعالى : ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ وهو ﷺ معصوم ففي هذا تنبيه لغيره، فهو صلى الله عليه وسلم موضع خِطاب الحق جل جلاله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾: أصح الأقوال أنه اسم للجبل الذي فيه الكهف أو اسم القرية التي كانوا فيها.

﴿أَمْ﴾: إعرابها: حرف عطف، وقد تكون متصلة أو منقطعة.

فالمتصلة : يكون كلام ما بعدها متصلاً بما قبلها، ولا يتم المعنى بانفصالها، والارتباط فيها لفظي كقوله تعالى : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ فهي هنا متصلة .

أما المنقطعة: فيكون كلام ما قبلها تاماً وكلام ما بعدها تاماً، والارتباط فيها يكون معنوياً وليس لفظياً، وتكون بمعنى (بل) التي هي للإضراب، والإضراب نوعان: إضراب انتقالي وإضراب إبطالي..

فالإضراب الإبطالي: يبطل ما قبله، كقولك مثلاً: (جاءني زيد بل عمرو) فأبطلت مجيء زيد وأثبت مجيء عمرو .

والإضراب الانتقالي: الانتقال إلى بحث آخر، وهناك علاقة في الكلام قد تكون خفية فـ﴿أَمْ﴾ في الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾: هي بمعنى (بل) وهي من الإضراب الانتقالي لأنه سبحانه سينتقل إلى بحث آخر.

﴿كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾: هل المراد: كانوا آيةً عجباً من آياتنا؟

لا، بل هم آية من الآيات العجيبة، وليسوا أعجب الآيات، فقوله تعالى: ﴿عَجَبًا﴾ هو وصف لآية، والظاهر أن يقال في غير القرآن: (آية عجيبة) فقد وصفها سبحانه بالمصدر -على معنى اسم الفاعل- كما تقول : (فلان عدلٌ) أي عادل فقوله تعالى: ﴿عَجَبًا﴾ أي عجيبة أو ذات عجب كما تقول: (فلان عدلٌ) أي ذو عدل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾ هنا يذكر الله تعالى قصة أهل الكهف ثم يفصّلها بالآيات اللاحقة، وهذه قاعدة القرآن الكريم في ذِكره للأشياء.

وأكثر العلماء على أن أصحاب الكهف هم بعد سيدنا عيسى عليه السلام حيث تولى على بعض الجهات -وهي في تركيا في طرسوس ، وقيل في الأندلس- [1] ملك يقال له:" دقيانوس" أو "دقيوس" وراح يحمل الناس على عبادة الأوثان .

فهؤلاء جمعهم الله تعالى مع بعضهم ونفروا من الكفر والظلم واجتمعوا تحت شجرة خارج البلد فمر بهم كلب حاولوا إبعاده فلم يستطيعوا، فانطلقوا وساحوا في الأرض حتى ساقهم إلى كهف معد ومهيأ للسكن، فأووا إليه ودعوا ربهم أن يرحمهم ويرشدهم لما فيه صلاح الدنيا والآخرة فآواهم الله تعالى .

والرشد ضد الغِواية، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾

والضلال ضد الهدى.

و(الفِتْية) [2] جمع فتى وهو الشاب في اللغة

---

[1] قال هذا من رآهم في الأندلس وهم كما كانوا بأجسامهم لكنهم أموات

[2] وتجمع على (فِتيان) جمع كثرة

مقام الفُتُوّة عند أهل الله تعالى

استدل أهل الله رضي الله عنهم على هذا المقام من القرآن الكريم إذ إنه لا يطلق وصف (الفتى) إلا في موضع المدح كما في الآيات: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾ ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ ..

فالفتوة: هي التحرر مِن كل ما سِوى الله تعالى بحيث تصير عبداً خالصاً لله تعالى، فهم شباب أحرار من الأغيار، عبيد خُلَّصٌ لله جل وعلا.

أما من استعبدته الأهواء والشهوات فهو عبد لها كما جاء في الحديث النبوي الشريف: [تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ..][1] كمن يعظّم المال كما يعظّم ربه أو أشد.. فهو عبد ماله .. وهكذا ....

أما إذا تحررت من ذلك وأويت إلى الله فقد لجأت إليه وصرت عبداً خالصاً له جل جلاله.

فلما طلب الفتية من الله تعالى ذلك آواهم الله تعالى وحفظهم، قال جل جلاله:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾

وهذا من باب الحفظ والتكريم ألقى الله تعالى عليهم النوم.

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: ضربنا حجاب النوم على آذانهم فلا يسمعون شيئاً مهما علا واشتد صوته، فأنامهم الله تعالى حفظاً وإكراماً لهم ليوقظهم في وقت آخر ويجعلهم آية إلى يوم القيامة تدل على أن الله تعالى قادر على حفظ الجسد بلا طعام ولا ماء مع الحياة، وتدل على أن الله عز وجل قادر على إحياء الموتى ....

ولقد كان أصحاب الكهف على دين المسيح عليه السلام وكانوا مقرَّبين من الملك فلما أرغمهم الملك على الكفر وعبادة الأوثان اتفقوا على الخروج من البلد حتى آواهم الله تعالى إلى الكهف وأنامَهم وأنزل ملائكة تحرسهم -ونزول الملائكة يستوجب المهابة-، ولما فقدهم الملك وراح يبحث عنهم لم يتمكن أحد من جنوده من دخول الكهف من الخوف والمهابة التي ألقاها الله عليهم فيئسوا من وجود أحدٍ داخل الكهف.

﴿ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ القاعدة في اللغة أن الأشياء إذا كانت قليلة تقول عنها (عدة) أو (معدودة) كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ أما إذا كانت كثيرة فتقول: (عدد كذا) أو (عدداً) فدل قوله تعالى: ﴿سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ دلَّ على كثرة السنين التي ناموها، ثم بيَّن سبحانه عددها في آية لاحقة، فذكر سبحانه أولاً إجمالاً ثم فصَّل.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾

﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾: أيقظناهم

﴿ٱلْحِزْبَيْنِ﴾: منهم أو من غيرهم، لأنهم بعدما استيقظوا انقسموا قسمين؛ منهم من يقول: (لبثنا كذا مدة)، ومنهم من يقول: (لبثنا كذا مدة).

﴿لِنَعۡلَمَ﴾ مع أنه تعالى يعلم ماذا سيقولون قبل أن يبعثهم من نومهم، وإن علمه تعالى سابق على الأشياء قبل وجودها [1] فما المراد من قوله تعالى: ﴿لِنَعۡلَمَ﴾؟!

الجواب: أي: علم رؤية أي: لنرى، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآيات: (لنعلم علم رؤية وشهود) لأن الرؤية تتعلق بالموجود، والعلم يتعلق بالموجود والمعدوم .

فالقرآن قد يطلِق العلم ويريد منه الرؤية، وقد يطلق الرؤية ويريد منها العلم كقوله تعالى في الآيات: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيۡفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ...﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ...﴿١﴾﴾

أي : ألم تعلم .

وقد يطلق العلم على الرؤية كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِنَعۡلَمَ أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ﴿١٢﴾﴾ أي: لنرى.

وقوله تعالى: ﴿أَحۡصَىٰ﴾: فعل ماضٍ؛ مِن (أحصى – يحصي) وليس مِن أفعل التفضيل [2] (أحصى بمعنى: ضبط)

---

[1] بعض المبتدعة اتهم اللهَ تعالى بالبداء: أي أنه سبحانه لا يعلم الشيء حتى يخلقه، وهذا جهل وكفر، وهؤلاء يسمّون بـ (أهل البداء) أي لا يبدو له سبحانه الأمر حتى يخلقه –والعياذ بالله– فإذا كان سبحانه لا يعلم الشيء فكيف يخلقه ؟! .. قال جل وعلا: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾.

[2] (أحصى) فعل رباعي ولا يصاغ من الفعل الرباعي أفعل التفضيل إنما يقال: (أشد إحصاء)

﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ .

﴿إِذۡ قَامُواْ﴾: هناك من قال بأنهم قاموا أي وقفوا بين يدي الملك وأعلنوا فقالوا كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لكن القول الأصح أنه ليس المراد من القيام: وقوفهم بين يدي الملك وإنما المراد من قوله تعالى: ﴿قَامُواْ﴾: انتبهوا من غفلتهم وفكروا في أنفسهم؛ يقال: (قام) ضد (قعد)، ويقال: (قام) أي: تنبّه للأمر واستعد، تقول: (قام بالأمر الفلاني) أي: انتبه له واستعد، -ومن هذا قوله تعالى : ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ أي تنتبهوا من غفلتكم وجهلكم وتتفكروا بخالقكم ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ أي برسول الله صلى الله عليه وسلم هل هو رجل عادي أم ساحر أم مجنون أم حقاً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فتتوصلوا إلى نتيجةِ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ٤٦﴾-.

ولذلك فإن أول مرتبة عند أهل الله في سيرهم إلى الله هي: (مرتبة اليقظة) مأخوذة من الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ لأن العبد نائم في غفلته وشهواته فيجب عليه أولاً أن ينتبه من غفلته ويستيقظ من رقدته.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ١٤﴾ أي: لو أشركنا مع الله أحداً لكان قولنا هذا إفراطاً ليس بعدل.

يقال: (شَطَّ – يشِطُّ – ويَشُطُّ) أي: بَعُد يبعُد .

قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۭ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾

السلطان: الحجة والبرهان، وكثيراً ما ترد في القرآن الكريم ويراد منها هذا المعنى، والمعنى هنا :لا دليل ولا حجة على أن الأوثان تُعبَد.

وسميت الحجة سلطاناً لأنها تجعل لصاحبها سلطة على غيره، فيصير عندك سلطة الحق على المُبطِل.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ١٥﴾ أي: فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً بنسبة الشريك له تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هذا قولهم لبعضهم، إذ إنهم تركوا قومهم وما يعبدون من دون الله واعتزلوا المشركين ومعبوداتهم إلا الله تعالى.

﴿فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ أي لما اعتزلوا المشركين وأوثانهم قالوا لبعضهم: (فأووا إلى الكهف، والجؤوا إلى الله فربنا الذي عبدناه ولم نشرك به لا يضيّعنا) وهذه ثقة بالله تعالى.

﴿يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: ادخلوا الكهف آمنين

﴿وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ وقراءة [مَرْفِقاً] قراءة متواترة[1].

المِرْفَق: ما يرتفق به، أي يُنتَفع به، ومنه يقال للمِخَدة: (مرفقة) لأنه ينتفع بها

أما مِرْفق البدن (العضو المعروف) فلا يقال له: (مَرْفق) أما ما ينتفع به غير هذا العضو فيقال له: (مَرْفِق) و(مِرْفق).

---

[1] وهي قراءة السادة: نافع وأبي جعفر وابن عامر رضي الله عنهم

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا ١٦﴾ هذا ما قالوه لبعضهم، أو أن ملكاً أرسله الله إليهم وقال لهم ذلك [1].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِۗ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا ١٧﴾

﴿تَّزَٰوَرُ﴾ : أصلها تتزاور (إذا كان الفعل مبدوءاً بتاءين فقد يُقتَصر على تاء واحدة) مِن الزَوَر وهو الميل، تقول: (زارت ، تزور، زَوَراً) أي: مالت، وتقول: (رجل أزْوَر) أي: مائل أحد جنبيه.

ومنه يقال: (الزُّور) للميل عن الحق، فالمادة تدل على المَيل.

قوله تعالى: ﴿ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: جهة اليمين ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: ترتفع عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ وَنُقَلِّبُهُمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِۖ وَكَلۡبُهُم بَٰسِطٞ ذِرَاعَيۡهِ بِٱلۡوَصِيدِۚ لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ لَوَلَّيۡتَ مِنۡهُمۡ فِرَارٗا وَلَمُلِئۡتَ مِنۡهُمۡ رُعۡبٗا ١٨﴾

---

[1] ليس كل من ينزل عليه الملك فهو نبي، كما نزل الملَك على أم سيدنا موسى عليه وعليها السلام ونزل على السيدة مريم عليها السلام، وكما بَشّر الملك سيدنا يوسف –وكان عليه السلام صغيراً في الجب ولم يكن نبياً، قال تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾– أما الملك النازل بشرعٍ من الله فيكون النازل عليه نبياً

فكانت عيونهم مفتوحة وكان الله تعالى يقلّبهم مرتين في السنة لئلا تأكل الأرض أجسامهم برطوبتها وعفونتها.

﴿ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ﴾ اسم فاعل وهو كالفعل المضارع يدل على الحال أو الاستقبال، أما إذا أريد منه الماضي فلا يعمل وهنا أعمل لأن ﴿ذِرَاعَيْهِ﴾ مفعول لـ ﴿بَٰسِطٌ﴾ إذاً هنا يدل على الحال والاستقبال وكأن الله تعالى يحكي الحال الماضي.. هذا على القول بأنهم ماتوا .

ومنهم من فهم أنه يحكي الحال الذي هم فيه الآن وأنهم رجعوا إلى نومهم ولم يموتوا، فالكلب الآن باسطٌ ذراعيه .

والآية تقول: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أيها الناظر في أي وقت.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾: أي أيها المُطَّلِع ﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾ لأنه سيرى جسماً غير معتاد على رؤيته، وكذلك بسبب المهابة التي ألقاها الله عليهم .

وقد ورد في بعض الأحاديث أنهم نيام وسيبعثهم الله ويكونون آخر الزمن من أنصار المهدي ومن جماعة سيدنا عيسى عليه السلام لأنه في آخر أيام المهدي سيظهر سيدنا عيسى عليه السلام ويجتمع معه[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾﴾: هذا يدل على أن المراد من الخِطاب هو أي مُطَّلِع كان وليس المقصود به سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم لأن مهابته صلى الله عليه وسلم أعظم فلا يهاب منهم.

---

[1] انظر (شرح الزرقاني على المواهب) ١/ ٤٨٣ و(عمدة القاري شرح صحيح البخاري) ١٦/ ٤٩

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ هذا الجواب مِن بعضهم مبني على غالب ظنهم، وهو دليل على جواز الأخذ بعلم غلبة الظن، وما قيل من أن أظفارهم طويلة وشعورهم كذلك فهو مردود بنص الآية: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ فلو رأوا أشعارهم وأظافرهم طويلة لما قالوا كما أخبر سبحانه عنهم: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ﴾ فإنها لا تطول بيوم إنما هم استيقظوا على الهيئة التي ناموا عليها.

أما رعب المطّلع عليهم إذا اطّلع فحاصل من جهة المهابة وحفظ الله لهم.

وقد تقدم معنا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾....

وقد ذكر الإمام النسفي في تفسير الآية قولين بناءً على الخلاف في المراد من ﴿ ٱلۡيَمِينِ﴾: هل هو يمين الكهف أم يمين الداخل؟

القول الأول: هو يمين الداخل؛ ومعنى ذلك أن جهة الداخل قبلية متوجهة للقبلة ولا بد أن يعتريها الشمس في الصيف بقلة وفي الشتاء بكثرة إلى داخله، لكن الله تعالى بقدرته يحجب الشمس عنهم فلا تدخل إليهم .

القول الثاني : بناءً على أن اليمين ذات الكهف أي أن الكهف شمالي معرض دوماً للنسمات الباردة، وهذا هو الظاهر .

﴿وَهُمۡ فِي فَجۡوَةٖ مِّنۡهُ﴾: يدل على أن للكهف فجوات وهم في فجوة واقعة في مدخله كي يتعرضوا للهواء حفاظاً على أجسامهم.

وتقدم أيضاً قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾ والمراد : لنعلم علم رؤية وشهود، وهذا له أشباه كثيرة في القرآن الكريم منها قوله عز من قائل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ ..الآية، وقوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾وغير ذلك من الآيات ... فما المراد من ذلك ؟

المراد: حتى نشهد ونشاهد، والملائكة عليها السلام تشهد وترى، وكل شاهد في الكائنات يشاهد فعلهم؛ فإن كان خيراً فشهادة لهم، وإن كان شراً فشهادة عليهم، وهذا الشهود حجة على العباد ولذلك يقول الله تعالى يوم القيامة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾

فقوله جل وعلا: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي وقت فعلكم له كنا – أي: الله وملائكته وشهداء الله–، فهذا من باب إقامة الحجة على العباد ولذلك ترى الآيات التي فيها ﴿نَعْلَمُ﴾ و ﴿لِنَعْلَمَ﴾ ترِد في مواضع ما بين ثواب وعقاب وخطأ وصواب .

وقد اختلف العلماء: هل يُرى المعدوم في حالة العدم أم لا يُرى؟

يعني هل يراه الله أم لا تتعلق الرؤية بالمعدوم؟

والجواب: إن المعدوم المستحيل يعلمه الله وهو لا يُتَصوَّر وجوده فلا تتعلق الرؤية به.

أما المعدوم الممكن كالإنسان قبل وجوده في عالم الشهود فهل كان الله يراه؟

فيه خلاف وأكثر علماء الكلام على أن المعدوم لا يُرى ولو كان ممكناً، لأن الرؤية تتعلق بالموجود فقط.

ولكن مِن المحققين مَن يقول: إن الله يرى المعدومات الممكنة قبل وجودها وإن لم تظهر في عالم الشهود بعد؛ بدليل سبب نزول الآيات: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾

وذلك أن أبا جهل لما أقسم أن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه ساجداً في الحرم نزلت الآيات، وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾ مع أن أبا جهل لم يفعل شيئاً بعد، فالله تعالى يرى ما نوى أبو جهل في قلبه من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذاً هو سبحانه يرى الفعل قبل وجوده ...

فالمراد من كلمة ﴿لِنَعْلَمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وأشباهها من الآيات الكريمة .. المراد منها: (لنعلم علم رؤية وشهود لتُقام الحجة على العباد) ولذلك يقول الله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ﴾ أي: بِعِلم سابق ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ أي: بل كنا شاهدين عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾أي: أيقظناهم من النوم

﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليسأل بعضهم بعضاً .

فما هو سبب اختلاف أهل الكهف فيما بينهم في مدة لبثهم وكونهم لبثوا يوماً أو أكثر؟

السبب أنهم لما استيقظوا رأوا آثار الغبار والاصفرار على بعضهم فاستدلوا على أن نومهم كان طويلاً.

أما قضية طول شعورهم وأظفارهم فهي غير ثابتة لأنه لو حصل ذلك لما قال بعضهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. وليس من المعقول أن تطول شعورهم في يوم واحد.

وهكذا انقسموا قسمين :

قسم قال كما أخبر سبحانه: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾وقسم قال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾وأقل الجمع ثلاثة والسائل واحد ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ فاستدل من هذا ابن عباس رضي الله عنهما على أن عددهم سبعة وثامنهم كلبهم، وقد ذكرت الآية اللاحقة عددهم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾

الوَرِق: هو الفضة سواء كانت دراهم أو غير ذلك، وحملهم الوَرِق عند خروجهم من المدينة وفرارِهم من الملِك لا ينافي توكلهم على الله تعالى -وهم رضي الله عنهم من كُمَّل الأولياء- وهذا شأن المتوكل على الله تعالى لأن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، وهذا هو مقام الكمال في الولاية، فلا بد في السفر من حمل الزاد .

وقد كان بعض الحُجاج يقدم إلى مكة دون زاد ويطرق الأبواب سائلاً، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فسألهم عن ذلك فقالوا: (نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ) فقال لهم رضي الله عنه: (بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَأَكِّلُونَ، إِنَّمَا الْمُتَوَكِّلُ الَّذِي يُلْقِي حَبَّهُ فِي الْأَرْضِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَى الله)[1].

أي: وذلك لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فقد أمر سبحانه بالتزود، أما إذا سمعت عن بعض الأكابر أنه ساح في الفلاة دون زاد فهذا أمر خاص؛ فقد يتخذ قوة التوكل سبباً -لأن التوكل سبب أيضاً؛ لأن من يتوكل على الله بصدقٍ مع صبر وتجلد على الجوع أو الشدة فقوة توكله هذه هي من أعظم الأسباب - لكن لا يصلح هذا مع كل الناس.

وربما يقال: هل هذا السائح في الفلاة دون زاد هو أفضل من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخلو بغار حراء ويتزود لذلك وفي أسفاره أيضاً ؟!

والجواب: إن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم كان مشرِّعاً أتى بشريعة تتسع لكل العوالم، ولو أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأسباب في الأسفار وفي خلوة الغار لكان عمله هذا تشريعاً وعلى الكل أن يلتزموا به وهذا ما لا يطيقه الكل، فمقام التشريع العام شيء ومقام الخصوصيات شيء آخر.

فالآية مثلاً: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ هي في الإنفاق في سبيل الله تعالى، وهذا تشريع عام، لا تَقِسْ عليه ما فعله أبو بكر رضي الله عنه عندما جاء بماله كله إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له ﷺ: [ما أبقيت لأهلك؟

---

[1] انظر (جامع العلوم والحِكم) ٢/ ٥٠٧

قال: أبقيتُ لهم الله ورسوله[1]] وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على فِعله هذا لأن أبا بكر أهل لذلك أما غيره فلا، ولأن أبا بكر رضي الله عنه هو من أهل التوكل على الله تعالى، فهناك تشريع عام وهناك قضايا خاصة بأهلها لا تُقاس على غيرها.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أي: أَحَلُّ وأطيَب

﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: في عدم مجادلة البائع

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾ أي: ليأخذ بأسباب الخفاء

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: أطْلَعْنا عليهم.

يقال (عثر عليه) أي: اطَّلع عليه، فهم قد أخذوا بأسباب الخفاء لكن الله تعالى أطلع عليهم فعرَّف أهل البلد بهم ليجعلهم آية وحجة.

﴿لِيَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: ليعلم أهل البلد التي كانوا فيها أن الله تعالى قادر على بعث الموتى لأن القادر على بعثهم من نومهم بعد تلك النومة الطويلة قادر على إحياء الموتى، -وهذا لأن أهل البلد كانوا قد اختلفوا في حقيقة البعث-

[1] انظر سنن الترمذي كتاب المناقب

وهناك قصة ذكرها النسفي في هذا الموضع تلخص ذلك[1] .

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

---

[1] قال الإمام النسفي: رُوي أن أهل الإنجيل عَظُمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكرهوا على عبادتها وممن شدد في ذلك دقيانوس، فأراد فتيةً من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على الإيمان، ثم هربوا إلى الكهف ومروا بكلب فتبعهم فطردوه، فأنطقه الله تعالى فقال: "ما تريدون مني؟ إني أحب أحباء الله، فناموا وأنا أحرسكم"، وقيل: مرّوا براعٍ معه كلب فتبعهم على دينهم ودخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم، وقبل أن يبعثهم الله مَلَكَ مدينتَهم رجلٌ صالح مؤمن، وقد اختلف أهل مملكته في البعث معترفين وجاحدين، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد وسأل ربه أن يبين لهم الحق، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ما سُدَّ به فم الكهف ليتخذه حظيرة لغنمه، ولما دخل المدينة مَن بعثوه لابتياع الطعام وأخرج الورِق وكان من ضرب دقيانوس اتهموه بأنه وجد كنزاً فذهبوا به إلى الملك فقص عليه القصة، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث، ثم قالت الفتية للملك: نستودعك الله ونعيذك به من شر الجن والإنس، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفى الله أنفسهم فألقى الملك عليهم ثيابه وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب فرآهم في المنام كارهين للذهب فجعلها من الساج – أي: من الخشب- وبنى على باب الكهف مسجداً. اهـ

﴿سَيَقُولُونَ﴾ خبرٌ عن أهل الكتاب والعرب لما بلغتهم القصة، فأخبر تعالى أنه سيجري حول أمرهم أقوال وخلافات[1]، وعندما يختلفون في ذلك فإننا سنوحي إليك يا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الجواب الصحيح.

﴿ثَلَٰثَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي: هم ثلاثة

﴿رَّابِعُهُمۡ﴾مبتدأ خبره ﴿كَلۡبُهُمۡ﴾، والجملة صفة لـ ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾

﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٌ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ظناً بالغيب

يقال: (رجم) أي: رمى ، ومنه الرجم بالحصى ، والقذف كذلك

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٌ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ الواو بعد المعرفة حالية، كقولك: (مررت بزيد وبيده سيف) أي: والحال: بيده سيف

---

[1] النصارى كانوا على ثلاثة ملل: يعقوبية ونسطورية وملكانية، وكذلك هم الآن: كاثوليك وبروتستانت وأرثوذكس، وهي خلافات في العقيدة وغيرها

أما تسمية هذه الواو بواو الثمانية فليس له أصل لغوي وإنما ذكره بعض العلماء مستدلاً بهذه الآية ﴿ثَامِنُهُمْ﴾ وآية ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وأبوابها ثمانية، أما عن جهنم فقال تعالى: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وأبوابها سبعة، لكن الجمهور على أنه لا وجود لواو الثمانية، وأن الواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ هي واو الحال : أي والحال أن أبواب الجنة قد فُتحت من قِبَل الفاتح الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم[1] وهم في طريقهم إليها ليسرعوا ونسيمها يهب عليهم، أما جهنم فيساق أهلها إليها وأبوابها مغلقة وتفتح أبوابها فجأة أمامهم ليزداد الموقف هولاً وشدة وليفاجؤوا بالعذاب، فالواو وإن دخلت على الثمانية فهذا من باب المعنى، ولم توضع الواو للثمانية.

قوله تعالى: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾: جاء هذا بعد القول بأنهم ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وهو تثبيت وإقرار من الله تعالى على عددهم هذا أما عندما قالوا إنهم : ﴿ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ قال سبحانه: ﴿رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾ أي ظناً.

قوله تعالى: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أي من الخاصة وهم قليل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (أنا من أولئك القليل)[2].

---

[1] جاء في سنن الترمذي قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ الله لِي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا فَخْرَ]... الحديث

[2] انظر (فضائل الصحابة) للإمام أحمد و(المعجم الأوسط) للطبراني

وقوله هذا ليس من باب دعوى العلم أو تعظيم النفس لأن الدعوى وتعظيم النفس هما أمران غير موجودين عند صحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما هذا افتخار بمسألة يحق له الافتخار بها وهي قوله رضي الله عنه: [ضَمَّنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ][1] وبسبب هذه الدعوة فتح الله عليه مفاهيم من القرآن الكريم .. مِن جملتها: عدد أهل الكهف، وراح يقول: (أنا من أولئك القليل) فهو يفخر بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له.

[1] انظر صحيح البخاري كتاب المناقب

تنبيهات

اعلم أن ما يثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما في التفسير فهو مُرَجَّحٌ على غيره من الأقوال [1]

لكن ليس كل ما ينسب إلى ابن عباس رضي الله عنهما ثابتاً، بل يجب أن يثبت بالأسانيد الصحيحة، أما قولهم: (وروي عن ابن عباس) -دون سند- ففيه نظر، مثال ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢﴾ قال بعض علماء التفسير: (روي عن ابن عباس أنه قال: قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ يعني: يا إنسان)، وهناك رواية عنه أيضاً ثابتة بأسانيد متعددة وشواهد وهي قوله رضي الله عنه: (قال الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ أي: يا رسول الله) فهو اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم لأن الله تعالى أراد بـ [السين]: سين السيادة على العالمين فقول ابن عباس رضي الله عنهما هذا جاء بأسانيد وشواهد من جملتها قوله تعالى : ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ وقراءة: ﴿سلام على آل ياسين ﴾ المتواترة [2] قال رضي الله عنه: (نَحْنُ آلَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) [3]، وهو رضي الله عنه من آل محمد صلى الله عليه وسلم؛ إذاً المراد من كلمة: ﴿يسٓ ۝١﴾ -التي هي في أول سورة ﴿يسٓ ۝١﴾ - المراد منها: سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سيد العالمين .

---

[1] إذا لم يرد في المسألة حديث شريف

[2] وهي قراءة ورش عن نافع رضي الله عنهما

[3] انظر (المعجم الكبير) للطبراني

أما قولهم: (روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝١﴾ يعني: يا إنسان) فهذه الرواية مردودة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا﴾ أي: جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه من باب الإعذار لهم على حد علمهم.

أو المراد : أنهم إذا جادلوك فاجمع جمْعاً من عندك وليجمعوا جمعاً من عندهم وأظْهِر الحجة والدليل حتى يكون الجدال ظاهراً للكل.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾..

يذكر بعض أصحاب السير والتفاسير في سبب نزول هذه الآية أن اليهود وكفار قريش لما سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن الروح وذي القرنين قال لهم: (سأخبركم غداً) ولم يقل: (إن شاء الله) فأبطأ عنه الوحي فنزلت هذه الآية...

فاعلم أن أسباب النزول التي لم تَرِدْ في كتب الحديث الصحيحة والتي يذكرها علماء التفسير أو السِّيَر فقط: لا يُعتمَد عليها، ومنها الصحيح ومنها الضعيف، والنص السابق في أسباب النزول رواه أصحاب السير فقط وذكره بعض المفسرين.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾: أي لأجل فعل شيء، فاللام في قوله تعالى: ﴿لِشَاْىْءٍ﴾ هي لام الأجلية وليست لام التعدية ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: يحتمل أن يكون المعنى: (إلا الذي شاءه الله وأوحى به إليك أن تقوله فقله) مثل ما ورد في الحديث الشريف يوم خيبر: [لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ][1]، فهذا لأن الله تعالى شاء ذلك بوحي منه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] طرف حديث في (صحيح البخاري) كتاب الجهاد والسير

والمراد من قوله تعالى: ﴿غَدًا ۝٢٣﴾ المراد به هنا: ما يستقبل من الزمن ولو بعد ساعة -وإن كان المراد منه في اللغة اليوم الذي بعد اليوم الذي أنت فيه-.

فالقول الأول : إلا بوحي من الله وإذن منه فيما تقوله .

والقول الثاني -وهو الأشهَر- أن المراد من قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا متعلقاً بمشيئة الله تعالى، وهو أن تقول : (سوف أفعل ذلك غداً إن شاء الله) معلِّقاً فعلك على مشيئة الله تعالى، أو تقول: (بمشيئة الله تعالى) أي متلبساً بمشيئة الله تعالى، أما الجزم بذلك دون تعليقه بمشيئة الله تعالى فأمرٌ منهي عنه لأنك ولو شئت فمشيئتك لا تنفذ حتى يشاء الله تعالى؛ وهذا من جملة الآداب في التوحيد مع الله تعالى.

ويرد ها هنا سؤال: ما هو معنى (إن شاء الله) التي أمرَنا سبحانه أن نعلق أفعالنا عليها؟

الجواب: المقصود منها التبرك والطلب من الله تعالى تحقيق ما نشاؤه نحن .

أما إذا قصدت في قولك: (إن شاء الله) التعليق على مشيئة الله دون أن تشاء أنت؛ فهذا تعليق على أمر مجهول بالنسبة لك -وهو مشيئة الله تعالى- أي : (إن شاء سبحانه أفعلُ وإن لم يشأ سبحانه لا أفعل) فهذا المعنى إذا قصدته في الأيمان أو العقود أو المبايعات فإنه يُبطِلها كما يبطل الإيمان إذا سُئلت: (هل أنت مؤمن أم لا)؟ وأجبت معلِّقاً على مشيئة الله تعالى .

فإذا قال الزوج لزوجته: (أنت طالق إن شاء الله) وقصد التعليق على مشيئة الله تعالى دون مشيئته هو فلا يقع الطلاق.

ولذلك اختلف علماء التوحيد إذا سُئِلتَ: (هل أنت مؤمن؟) فأجبت: (أنا مؤمن إن شَاء الله) فمنهم من جَوَّز ذلك ومنهم من لم يجوِّزه.

والتحقيق في المسألة أن العبد إذا أراد التبرك وطلبَ من الله دوام الإيمان فلا بأس، أما إذا قصد التعليق على المشيئة فيكفر.

فمعنى التبرك في قولك: (إن شاء الله) هو أنك شئت وتطلب من الله تحقيق مشيئتك، أما إذا قصدت التعليق على المشيئة فأنت لم تشأ بل علقت مشيئتك على مشيئته سبحانه.

وقد نزلت هذه الآية في مجال تأديب الله تعالى لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، وليس مراداً منها التأنيب أو العتاب ، بل إن تأديب الله لرسوله صلى الله عليه وسلم هو إرشاد له صلى الله عليه وسلم ولذلك قال ﷺ: [أدَّبني ربي فأحسن تأديبي] [1] فلم يؤنَّب ولم يعاتَب ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾..

القول الأول: أي إذا نسيت التعليق على المشيئة تبركاً وهو قولك (إن شاء الله) وبعد ذلك تذكرت فقل: (إن شاء الله) حتى يتم الأمر على بركة الله .

---

[1] عزاه الحافظ السخاوي في (المقاصد الحسنة) إلى الْعَسْكَرِيّ فِي (الأَمْثَالِ)، وقال: وإن اقتصر شيخنا على الحكم عليه بالغرابة في بعض فتاويه، ولكن معناه صحيح، وكذا جزم ابن الأثير بحكايته في خطبة النهاية وغيرها، بل أخرج أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء بسند منقطع، فيه من لم أعرفه عن عبد الله أظنه ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله أدبني فأحسن تأديبي]. اهـ وجاء في كنز العمال: حديث: [أدبني ربي فأحسن تأديبي] ابن السمعاني في أدب الإملاء عن ابن مسعود رضي الله عنه.

أما كلمة (إن شاء الله) إذا أريد بها التعليق على المشيئة دون التبرك فهذه تبطل الإيمان والعقود بشرط أن تكون متصلة بالكلام.

فإذا قال لها: (أنت طالق) وسكت ثم قال: (إن شاء الله) فقد وقع اليمين، أما إذا وصل كلمة (إن شاء الله) بكلامه السابق أو بيمينه فلا يقع الطلاق ولا اليمين، هذا إذا كان مقصوده التعليق على المشيئة.

أما مدة السكوت فأكثر الأئمة على اتصال الكلام وليس اتصال المجلس.

القول الثاني :

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾: هذا بدء كلام، والمعنى: إذا نسيت أمراً تريد فعله فاذكر الله تعالى، فذِكرك لله عز وجل -من تهليل أو تحميد أو استغفار....- يذكِّرك بما نسيت.

ودليل هذا القول لِحاق الآية: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ٢٤﴾أي: عسى أن يهديني ربي لشيء آخر بدل هذا المنسي أو إلى خير منه.

أما دليل القول الأول فهو سياق الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ....﴾

وهذان القولان معتمَدان.

قوله تعالى:﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾: أي هذا هو حق مدة لبثهم في الكهف الله أعلم بها وقد بيَّنها سبحانه بقوله جل وعلا: ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ٢٥﴾

وفعل (زاد) يتعدى لمفعولين، كقولك: (زاده الله بركةً)

أما فعل (ازداد) فيتعدى لمفعول واحد -وهو في الآية قوله عز من قائل: ﴿تِسۡعٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾..

ذكر سبحانه اختصاصه بعلم غيب السموات والأرض، فمِن أين أتى وجه الاختصاص؟

نعم؛ إن ذلك أتى بتقديمه سبحانه المعمول -وهو قوله سبحانه ﴿لَهُۥ﴾- على العامل، وهذا في علم المعاني، كقولك: (زيداً اضربه) أي اضرب زيداً فقط دون غيره، أما لو قلت: (اضرب زيداً) فيكون المعنى: اضربه مع غيره.

قوله تعالى: ﴿أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡ﴾ أي: أبصِر به وأسمِع به، وهذه الصيغة صيغة تعجب لأن للتعجب صيغتين: (ما أفعله) و(أفعل به) أي: ما أقوى سمعه تعالى! وما أقوى بصره جل جلاله!

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٦﴾

أي: ما لأحد في السماوات والأرض مِن دون الله مِن متولٍ لأمورهم .

قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ والصبر هو الثبات والإمساك، وذلك عندما طلب كفار قريش من النبي صلى الله عليه وسلم أن ينحِّيَ عن مجلسه فقراء الصحابة كعمار وصهيب وبلال وسلمان رضي الله عنهم لكي يجالسوه فنزلت الآية ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾[1]....

والمعنى : أمسك نفسك واجلس معهم ولا تُصْغِ إلى كفار قريش .

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾ أي: اجعلهم موضع نظرك إذا كان معهم غيرهم في المجلس.

---

[1] انظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد

ولو جاءت الآية (ولا تعد عنهم عينيك) لكان معناها: (لا تجاوز النظر إليهم)..

يقال: (عداه) و(تعداه) أي: جاوزه، فجاء سبحانه بكلمة ﴿عَنْهُمْ﴾ ليضمّن الفعل معنيين: أولهما: (عدى) بمعنى (جاوز) وثانيهما: (أعرض)، أي: لا تجاوز النظر معرضاً عنهم ؛ ويفهم التضمين من أداة التعدية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ يقال: (قبلت منه) وليس (عنه)

فجاء سبحانه بكلمة ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ مضمِّناً معنى الصفح أي: يقبل سبحانه التوبة منهم ويصفح عنهم، وهذا من جملة إعجاز القرآن الكريم .

والتضمين يرجع إلى علم البلاغة، وهو نوع من أنواع البديع.

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بجعلِ نظرك إلى الأغنياء والمجرمين تريد من ذلك الحياة الدنيا، وهذا خطاب موجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد منه الأمة المحمدية تأديباً وتهذيباً لهم، أما هو صلى الله عليه وسلم فهو سيد المتواضعين، ومن تواضعه ﷺ كان يقول: [اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ][1]، وفي هذا تنبيه للمؤمن أن لا يحتقر الفقراء والمساكين وكذلك ألا يحترم الأغنياء وأصحاب الدنيا بسبب مالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي: لا تطعهم فيما طلبوه أن تقصي الفقراء عن مجلسك.

﴿أَغْفَلْنَا﴾ فيه دليل لأهل السنة أن أفعال العباد هي بخلق الله تعالى ولكن ليس ذلك حجة على الله تعالى -بخلاف المعتزلة إذ يقولون: إن الكفار والفساق لم يخلق الله كفرهم وفسقهم بل هم أنفسهم خلقوا ذلك-.

---

[1] انظر (سنن ابن ماجه) و(سنن الترمذي) كلاهما في كتاب الزهد

واعلم أن إغفال القلب وإقفال القلب والطبع على القلب والختم عليه الوارد في كثير من آيات الله تعالى اعلم أن هذا لا يأتي إلا بعدما تبين لهم نور الحق واتضح لهم الدليل فرأوا الحق وستروه وجحدوه، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ وقال جل جلاله: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ ، وهكذا .....

فلما أعرضوا عن الاعتراف بالحق وأصروا على كفرهم ختم الله على قلوبهم وطبع عليها.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾.

قد تطلق كلمة ﴿ٱلْحَقّ﴾ على ما له حقيقة في الوجود ويقابلها كلمة (الباطل) فيقال: (هذا حق) أي: موجود، و(هذا باطل) أي معدوم، ومنه الحديث: [أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ: كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا الله بَاطِلٌ][1] أي: كل شيء ما عدا الله هو باطل أي معدوم من ذاته، ويقابل هذا: (الحق) بمعنى واجب الوجود وهو الله تعالى.

وقد تطلق كلمة (الحق) على المعنى الشرعي كحقوق العباد فيما بينهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الحق الشرعي المطابق للواقع وهو الإسلام، فالله تعالى حق واجب الوجود، والرسول صلى الله عليه وسلم حق -بمعنى أنه صلى الله عليه وسلم حقاً رسول الله- وأدلة صدقه ﷺ ظاهرة واضحة.

---

[1] انظر (صحيح مسلم) كتاب الشعر واللفظ له و(صحيح البخاري) كتاب المناقب

ومِن المفسرين مَن قال: إن المراد من ﴿ٱلۡحَقّ﴾ في الآية الكريمة: القرآن الكريم، ولا تنافي في هذا لأن الآية تدل على كل هذه المعاني، فاختلاف أقوال المفسرين قد يكون اختلاف تضاد -وهذا قلّ ما يقع- ولا بد عندئذٍ أن يكون أحد الأقوال هو المعتمد، وهناك اختلاف تنوع في الفهم فكل منهم فَهِم طرفاً من المعنى، والآية تدل على كل هذه المعاني -كما في آية ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ فمنهم من فسر الحق بـ (الإيمان) ومنهم من قال: هو الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال: هو القرآن الكريم، وكل هذه الأقوال صحيحة معتمدة.

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: ظهر الحق وجاء من الله تعالى

﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن﴾ أي فمن شاء فليصدّق ويعتقد بهذا الحق لأنه ظهر وبان

﴿وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيُؤۡمِن﴾ صيغة أمر لأن الله تعالى أمر جميع خلقه أن يؤمنوا، وأما قوله تعالى: ﴿فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ فجاء بصيغة الأمر لأنه سبحانه بيّن أن الإيمان والكفر هما باختيار العبد ومشيئته، فالعبد يختار الإيمان فيؤمن أو يختار الكفر فيكفر ، ومن كفر فليكفر وليعلم أن عاقبة كفره ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾ وهذا من باب التهديد والوعيد كما جاء في قوله تعالى:﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ فيه بيان أن للإنسان اختياراً ومشيئة، وأن الإنسان متمكن من أن يؤمن ومتمكن من أن يكفر - أي مكَّنه سبحانه بما خيَّره- أما الجبرية ومن نحا نحوهم فقالوا:

(إن الضمير في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ عائد إلى الله تعالى، ولا مشيئة للإنسان) وهذا الفهم مردود يبطله سياق الآية: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا...﴾ الآية

وقد خلق الله تعالى في الإنسان صفة المشيئة والاختيار، وأعطاه القدرة على الاختيار والتمكن مما يشاؤه ويختاره.

وأما من زعم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ المراد منه سلب المشيئة من الإنسان فكلامه مردود لأن الذي قال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ هو الله تعالى، والذي قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو الله تعالى.. قال عز من قائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾ إذاً لا بد من فهم الآيات مجتمعة مع بعضها، ولا يجوز ضرب آية بآية أخرى كما ورد في الحديث عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: [خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ فَكَأَنَّمَا يُفْقَأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِن الْغَضَبِ[1] فَقَالَ: بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟ أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ؟ تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، بِهَذَا هَلَكَت الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ][2]..

وفي رواية: [دَعُوا الْمِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ؛ فَإِنَّ الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتَّى اخْتَلَفُوا][3]..

---

[1] أي غَضِبَ صلى الله عليه وسلم واحمرَّ وجهه الشريف

[2] انظر مقدمة سنن ابن ماجه

[3] انظر (مصنف ابن أبي شيبة)

ولفهم آية: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نقول: اعلم أن للعبد مشيئة، وليست مشيئته كمشيئة الرب سبحانه، بل هي مشيئة عبد كما أن للعبد وجوداً وللرب سبحانه وجوداً، لكن وجود العبد ممكن، والله تعالى واجب الوجود ، ووجوده سبحانه ذاتي، أما العبد فهو موجود بإيجاد الله تعالى وكذا سائر الصفات... فالإنسان موجود بإيجاد الله تعالى، وهو قادر بإقدار الله سبحانه له، وهو عليم بتعليم الله له، وله مشيئة بمشيئة الله تعالى، ومن أنكر واحدة من هذه الصفات يترتب عليه إنكار جميع الصفات التي خلقها الله سبحانه في الإنسان، ومَن صدّق بواحدة وجب عليه التصديق بجميعها، وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ يُفهَم منه: (وما تعلمون إلا أن يعلِّمكم الله، وما تقدرون إلا أن يقدركم الله تعالى، وما تسمعون إلا أن يُسمِعكم الله سبحانه ... وهكذا) .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد: [ولك الحمد أنت الحق] – أي واجب الوجود من ذاتك، وأما خلقك فهم من الممكنات الجائز عليها الوجود أو العدم – [ووعدك حق] – أي بتحقيقك أنت الذي جعلته حقاً – [ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق][1] فكل ذلك حق لا باطل، بل هو حق ثابت بتحقيق الله له، فافهم.

[1] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣١٩٦ وصحيح البخاري كتاب الدعوات عن ابن عباس رضي الله عنهما

فالصفات التي وصف الله تعالى بها الإنسان: النسبةُ فيها نسبة حقيقية، ولكنها نسبة مخلوق لمخلوق، كما علق سبحانه المسؤولية والحساب على الاختيار، ولو سُلِب الإنسان الاختيار فلا سؤال ولا حساب عليه كالمضطر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ وكالمكرَه، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾..

والإكراه المُلْجِئ هو إما قتل نفس، أو تعطيل عضو أو جارحة؛ فله أن يتلفظ بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

وهناك أمور لا مشيئة للعبد فيها كالأمراض والمصائب والأخطاء والغفلة والنوم -كمن نام عن الصلاة، أو أخطأ في أمر كمن أراد أن يصطاد طيراً فأصاب إنساناً- فهو غير مسؤول عند الله تعالى، ولكن عليه حق للإنسان الآخر يجب أن يقوم به وعلى هذا فقول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: [إِنَّ الله تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ][1] أي: تجاوز الله عنهم فيما بينهم وبينه سبحانه وتعالى، أما بالنسبة لحقوق العباد فلا بد من أدائها لئلا يدعي المتعمدُ الخطأ فتضيع الحقوق عندئذٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾

الفسطاط: بيت من الشَّعر، وما كان حول هذا البيت من تحجيرة أو نحوها -كَسُور من حجر ـ فيسمى: (سرادقاً)، وقد يطلق على ساحة الدار (السُرداق) ويطلق (الفسطاط) على البيت نفسه، فالنار هي بيت للكفار وهي الفسطاط.

---

[1] سنن ابن ماجه كتاب الطلاق وصحيح ابن حبان ومستدرك الحاكم

وقوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي سيحيط بهم، ومنهم من قال: إن قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أي الآن، فهم الآن في السرادق، وسيصلون إلى الفُسطاط ـ جهنم ـ يوم القيامة، وفي هذا قال الله تعالى : ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فهي عذاب لهم لأنهم يسيرون في الدهليز الموصل إلى جهنم، وإن أموالهم واختراعاتهم وَبَالٌ عليهم في الدنيا قبل الآخرة أي في السرداق قبل الفسطاط.

وأراد سبحانه من قوله: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ﴾: الكفار، كما قال جلَّ وعلا ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤﴾ وليس هناك أظلمُ من الكافر لأنه جحد وجود الحق سبحانه، وظلم نفسه بأن عرَّضها لسخط الله وعذابه.

ويقال لكل مذنب: (ظالم) -على وجه التقييد- فيقال: (ظالم نفسه) أو (ظالم لنفسه) كما قال جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ المهل: دُرْدِيّ الزيت أي عَكَرُ الزيت[1].

[1] انظر (لسان العرب) مادة (مهل)

﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ المرتفق هو المتكأ الذي يضع الإنسان عليه مرفقه، وهو يجعل في الإنسان رفقاً وراحة من التعب، ولما كان أهل جهنم دائماً في عناء ووباء ولا رفق بهم دل على أن قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ هو من باب المُشاكَلَة أو المقابلة للآية بعدها عندما ذكر سبحانه المؤمنين وما أعد لهم من النعيم في الجنة ثم قال : ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا ٣١﴾

والمشاكلة هي المقابلة باللفظ مع اختلاف المعنى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ ﴿وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقًا﴾ فلكل مُرْتَفَقٍ معنى.

والمشاكلة أيضاً أن يذكر الشيء بلفظ ليس له وذلك لوقوعه في صحبته، كما جاء في قول الشاعر:

قالوا: اقترح شيئاً نجد لك طبخه قلت: اطبخوا لي جبة وقميصاً

أي: خِيطوا لي جبةً وقميصاً.

وجاء قول الشاعر: (اطبخوا) مشاكلة لكلامهم، ولكنه أراد معنى آخر وهو الخياطة، وعلى هذا فقد يطلق اللفظ على غير معناه مشاكلة للفظ أمامه أو وراءه.

ثم بيَّن سبحانه جزاء من اختار الإيمان فقال جل جلاله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾

وكأنه قيل: ما هو أجر من أحسن عملاً؟

فقال جلّ وعلا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾

وهذا استئناف بياني إذ إن هذه الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ لم تأت معطوفة على ما قبلها بل أتت منفصلة -وهذا يرجع إلى بحث (الوصل والفصل) في علم المعاني في البلاغة-

فالوصل: هو تعاطف الكلام بالواو أو بالفاء أو ثم، والفصل: ترك العطف -أي ترك عطف الجملة على ما قبلها- كما في الآية: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ﴾ وهذا الفصل يسمى بـ (الاستئناف البياني) ويختلف عن (الاستئناف النحوي) لأن الاستئناف النحوي يُعطَف على ما قبله بواو الاستئناف أو بفاء الاستئناف، أما الاستئناف البياني فلا عطف في الجملة على ما قبلها، وتكون هذه الجملة مبينة للأولى -كما هو في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾-.

ولبيان ما هو هذا الأجر قال سبحانه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ٣١﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: جملة اسمية في محل رفع مبتدأ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ خبر أول ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّـٰتُ عَدۡنٖ﴾ خبر ثانٍ..

فقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ جملة خبرية للمبتدأ، والجملة إذا وقعت خبراً لا بد لها من رابط يربطها بالجملة الأولى -التي هي المبتدأ- فما هو هذا الرابط؟

الرابط قد يكون ضميراً أو اسم إشارة أو العموم، والرابط في الجملتين تقديره: (منهم) أي: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠﴾ منهم، وهو ضمير يعود على الجملة السابقة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾.

ونظير هذا في اللغة قولهم: (السَّمْن مَنَوان بِدِرْهَم)

(السمن): مبتدأ، (منوان) مبتدأ ثانٍ، (بدرهم) جملة خبرية عن السمن ولا بد لها من رابط وتقديره: (منه) أي: (السمن منوان منه بدرهم).

وقد يكون الرابط هو إعادة الجملة لفظاً أو معنى كالآية: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾.

وفي الآية لما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ أعيدت الجملة معنىً لأن الذين عملوا الصالحات هم الذين أحسنوا عملاً، ولا حاجة عندئذٍ لتقدير الرابط.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ جمع (أسورة) التي هي جمع (سوار)، وتنكير ﴿أَسَاوِرَ﴾ لتفخيمها وتعظيمها وحسن جمالها.

﴿مِن ذَهَبٍ﴾: ﴿مِن﴾ بيان لحقيقة الأساور.

﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾

السندس: ما رقَّ من اللباس، أما الإستبرق فهو ما غلظ منه وهو ديباج الحرير.

قوله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ
وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم
مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠
أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن
تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا
مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ
ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨
وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالٗا وَوَلَدٗا ٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ٤٠ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا
وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا ٤٣﴾

وهذا المثل لبيان حال المؤمن وحال الكافر[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ النفر: الأصحاب، وسماهم بذلك لأنهم ينفرون معه وقت الشدة لنصرته، أو المراد من النفر أولاده لأنهم ينصرونه أيضاً .

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ لتماديه في غفلته، "وترى أكثر الأغنياء من المسلمين تنطق ألسنة أحوالهم بذلك" -وهذا كلام الإمام النسفي بحروفه-.

ولسان الحال أصدق من لسان القال كمن كان حاله حال الفقير وقال بلسانه: (أنا غني) فلا يصدّقه أحد؛ لأن حاله يكذّب مقاله .

ولقد قال هذا الإمام النسفي في أغنياء زمانه فماذا نقول في أغنياء زماننا؟!

وقد ذكر الله تعالى هذه القصة عن رجلين أخوين أحدهما كان غنياً كافراً والآخر كان مؤمناً، وفي هذا عبر ومواعظ من جملتها: أن هذا الغني قد يظن نفسه أنه ما دام سعيداً في دنياه فسوف يسعد في آخرته..

---

[1] قال الإمام النسفي في تفسيره: ومثّل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل ، أحدهما كافر اسمه قطروس ، والآخر مؤمن اسمه يهوذا، ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فجعلاها شطرين ، فاشترى الكافر أرضاً بألف دينار فقال المؤمن : (اللهم إن أخي اشترى أرضاً بألف دينار وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف) فتصدق به ، ثم بنى أخوه داراً بألف فقال : (اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف) فتصدق به ، ثم تزوج أخوه امرأة بألف فقال : (اللهم إني جعلت ألفاً صَداقاً للحُور) ، ثم اشترى أخوه خدماً ومتاعاً بألف دينار فقال : (اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف) فتصدق به ثم أصابته حاجة فجلس لأخيه على طريقه فمر به في حشمه فتعرض له فطرده ووبخه على التصدق بماله...

كما أخبر عنه سبحانه في قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ ولكن الشارع الحكيم بيّن أن سعادة الدنيا تابعة للدنيا فقط، وأما سعادة الآخرة فهي السعادة الحقيقية.

ومما يستفاد من هذه القصة أيضاً ألّا يغتر الإنسان بماله، ولا يظن أن ماله سيبقى معه إلى أن يموت، فقد يعتريه شدائد ولا يجد عنده شيئاً، ثم ليذكر أن ماله نعمة من الله تعالى عليه فليحافظ عليه، ولا يظن في نفسه أنه هو الذي تعب وجنى هذا المال كما أخبر سبحانه عن قارون قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ بل هو بفضل الله تبارك وتعالى وتوفيقه.

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾

قالوا: (الظلم هو التصرف في ملك الغير)، وعلى هذا المعنى فلو عذَّبَ الله تعالى أهل الأرض كلهم لَمَا ظلمهم لأنه تصرفَ في ملكه سبحانه وتعالى.

إلا أنه سبحانه وتعالى امتدح نفسه وأثنى على نفسه فقال جل وعلا: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ فلا يتصور في حق الله تعالى الظلم على هذا المعنى..

وكيف يمتدح سبحانه وتعالى نفسه بصفة لا تتصور في حقه؟!

فلمَّا نزَّه سبحانه وتعالى نفسه عن الظلم دل على أن المراد بالظلم معنىً آخر وهو: (الزيادة في عقوبة المسيء أو انتقاص مثوبة المحسن)، وهذا ما نَزَّه سبحانه نفسه عنه،

وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ والهضم: هو انتقاص الحق وهضمه، والمعنى: ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخشى ظلماً بزيادة عقوبة عما يستحق، ولا يخشى هضماً بانتقاص أجره عما يستحق على إحسانه، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: وذلك بفضله ورحمته سبحانه..

أما ما يروى عند أبي داود وغيره من حديث: [لَوْ أَنَّ الله عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ: عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ][1] فكيف يعذِّب الله تعالى أهل السماوات وهم معصومون وعن عبادته لا يفتُرون؟ وأما أنهم مقصرون عن عبادة الله تعالى حق عبادته -بمعنى أنهم لا يُحْصون حق الله وقدره- فإن التقصير لا يوجب العذاب، فهذا الحديث في سنده نظر، وإن ثبت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فالمراد منه: أنه سبحانه لو حاسب أهل السماء -وهم الملائكة- ودقَّق عليهم لكانت النتيجة أنهم ما عبدوه حق عبادته فوجب عليهم العذاب، وما ظلمهم بذلك سبحانه، وكذلك أهل الأرض من الإنس والجن فيما لو حوسب المؤمنون ودُقق عليهم .

والظلم الذي تنزه عنه سبحانه هو: (الزيادة في عقوبة المسيء أكثر مما يستحق، أو الانتقاص من أجر المحسن) وهذا هو التحقيق في تعريف الظلم.

---

[1] سنن أبي داود كتاب السُّنّة وسنن ابن ماجه في المقدمة

ويعرِّف علماء الكلام والتوحيد يعرِّفون الظلم بأنه: (التصرف في ملك الغير) فلا يُتَصور الظلم في حق الله على هذا المعنى ، إذ إن لله ملك السماوات والأرض وما بينهما ، إلا أنه سبحانه لما نفى عنه الظلم وتنزه عنه في كثير من الآيات دل على أن المراد بالظلم هو: (الزيادة في عقوبة المسيء أكثر مما يستحق، أو الانتقاص من أجر المحسن) كما عليه العارفون.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: [يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا][1].

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾

﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة في محل مبتدأ

﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ : صفة لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الأجناس

وفي اللغة : إن الصفات التي يوصف بها العقلاء يجب أن تكون مشتقة، كقولك: (زيد عاقل) أو (زيد حامد) .... الخ .. ولا يصح وصف العقلاء بأسماء جامدة كقولك: (زيد حجر) فكلمة (حجر): تأتي ومحلها خبر، وليست صفة لأن كلمة (حجر) اسم جنس وهي أسماء جامدة.

وقد يرد في بعض المصادر أنهم يطلقون الأسماء الجامدة ويريدون اسم الفاعل كقولهم: (زيد عَدْلٌ) أي عادل، ولا يقاس هذا على غيره فلا يقال مثلاً : (زيد ضرْبٌ) بل يقال: (زيد ضارب) لأن (ضربٌ) اسم جنس أي اسم جنس الضرب.

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وكذلك فإن كلمة ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ من أسماء الأجناس الجامدة، ولا يصح جعلها صفة إلا أن القاعدة تنص على صحة ذلك في أسماء الإشارة فتوصف أسماء الإشارة بأسماء الأجناس كما توصف بالمشتقات وهذا كما في قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ : خبر قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾.

والوجه الآخر من الإعراب أن:

﴿تِلْكَ﴾: مفعول مقدم لفعل ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ -وهذا من باب الاشتغال-.

﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾: بدل منها أو صفة.. كما قيل:

(إذا أتاك اسم معرف بـ ال بعد إشارة فعطف أو بدل أو نعت)

فقد يكون الاسم المعرف بـ ال بعد اسم الإشارة قد يكون عطفاً -أي عطف بيان وليس عطف نسق- لأن العطف قسمان: عطف بيان وعطف نسق

والفرق بينهما أن عطف النسق يحتاج إلى حروف عاطفة، وأما عطف البيان فلا يحتاج إلى حرف عاطف.

وإن تقديم المفعول في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ هو من باب الاشتغال وهو أن تقدّر فعلاً قبل الاسم يدل عليه ما بعده، والمعنى: (أهلكنا تلك القرى لما ظلموا)، والمراد من القرى: قوم نوح وعاد.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ۝٥٩﴾

إذا كانت عين الفعل المضارع غير مكسورة فالمصدر الميمي والزمان والمكان لهذا الفعل على وزن (مَفْعَل) مثل: (ذهب ، يذهَب ، مَذْهَب) ومكان الذهاب وزمانه والمصدر الميميّ: (مَذهَب)، ومثل: (دخل يدخُل دخولاً) فالمصدر الميمي (مَدْخَل) وزمان الدخول ومكان الدخول (مَدْخل).

أما إذا كانت عين المضارع مكسورة كَـ (ضَرب يضرِب) فإن المصدر الميمي على وزن (مَفْعَل) مثل: (مَضرَب) أما الزمان والمكان فهما: (مَفْعِل) كقولك: (هذا مَضرِب فلان) أي: موضع ضربه، أو: وقت ضربه .

ومنه: (هلك يهلِك) فالمصدر: (مهلَك) أما الزمان والمكان فهو: (مَهْلِك)

ويستثنى من هذه القاعدة: فِعلُ (وَعَدَ) فإن المصدر والزمان والمكان منه هو: (موعِد).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾: وإنما قيل: (فتاه) -وهو نبي الله يوشع بن نون عليه السلام- لأنه كان يخدمه ويتبعه ويأخذ العلم منه، وليس المراد من الفتى هنا: العبد المملوك.

والأصل أن من لازم غيره فهو فتاه؛ فقد يطلق وصف (الفتى) على (العبد) لأنه ملازم لسيده، كما في الحديث: [وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: (عَبْدِي) (أَمَتِي)، وَلْيَقُلْ: (فَتَايَ) وَ(فَتَاتِي)][1] تكريماً للعبد المملوك .

وقد أطلق القرآن الكريم وصف (الفتى) على من تحقق بمقام الفتوة، والفتوة هي: التحرر من رق العبودية لغير الله تعالى؛ قال سبحانه: ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠﴾ وقال جل جلاله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

فقوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ ﴾ ـ هو نبي الله يوشع بن نون عليه السلام ـ ﴿لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ أي: لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أسيرَ زمناً طويلاً، والحُقُب: ثمانون سنة .

---

[1] طرف حديث في صحيح البخاري كتاب العتق

أورد الإمام النسفي رحمه الله تعالى رواية غير الصحيحين حول قصة موسى والخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، أما ما جاء في صحيح البخاري رضي الله عنه[1] فأن موسى عليه السلام خطب في الناس يوماً فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فأوحى الله تعالى إليه: [بَلَى عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ]، فطلب موسى عليه السلام لقاءه فدلّه الله تعالى إلى ذلك ، وبين سبحانه له أن علامة لقيا الخضر عليه السلام هي المكان الذي سينفذ فيه الحوت ـ السمكة ـ، ومضى موسى ومعه يوشع عليهما السلام.. ووضع يوشع سمكة مملوحة في مِكْتَلٍ ـ وهو الزنبيل، و(الزنبيل) كلمة عربية ـ وركبا البحر ـ أي في السفينة ـ وانطلقا وبينما هما كذلك رقد موسى عليه السلام فمرا على عين ماء وهو ماء الحياة[2] فأصاب الحوتَ رشاشة من هذا الماء فدبت فيه الحياة واضطرب وقفز إلى البحر

---

[1] انظر الرواية بحروفها في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

[2] وهذا الماء –الذي هو ماء الحياة– هو الماء الذي خلق الله منه الأشياء كلها، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾

وجاء في مسند الإمام أحمد قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ] ومِن هذا الماء هناك نهر على باب الجنة يلقى فيه العصاة بعد خروجهم من جهنم حُمماً فتنبت أجسامهم كما ورد في الصحيحين وغيرهما.

وماء الحياة فيه جميع العناصر الحيوية، أما الماء المعروف فليس فيه ذلك، ويدل على هذا أنك لو أخرجت سمكة من الماء وماتت ثم أعدتها إلى الماء لما عاشت، أما ماء الحياة فقد أحيا تلك السمكة وتسربت إلى البحر.

فلما جاوزا هذه العَين استيقظ سيدنا موسى عليه السلام ، وشعر بالجوع وطلب من يوشع الطعام فقال له يوشع عليه السلام: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ أي: غفل عنه ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: رجعا حتى يلتمسا المكان الذي فقدا فيه الحوت، وهذا من آيات الله تعالى أن جعل لمكان نزول الحوت في البحر جعل له أثراً كالفجوة المفتوحة، ولما وجدا ذلك الأثر وهو قريب من الشاطئ ، ووجدا على الشاطئ صخرة عليها رجل مسجىً ـ مغطى بثوبه ـ سلم عليه موسى فقال له الخضر عليهما السلام: [يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ] وطلب منه سيدنا موسى عليه السلام أن يعلمه مما علمه الله فقال كما أخبر سبحانه عنه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ وهذا من باب العرض والاستئذان حيث قال له كما أخبر سبحانه عنه: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ ولم يقل له: (علِّمني) وهذا فيه مِن كمال الأدب ما فيه .

فشرطَ الخضر عليه السلام على موسى عليه السلام إذا اتبعه ألّا يعترض عليه بل يسلّم له ما يراه منه ولو ناقض ما عنده من العلم.....

ما هي رتبة الخضر؟

ذهب المُحَدِّثون وأهل العلم من الصوفية والعارفين رضوان الله عليهم أجمعين إلى أن الخضر عليه السلام هو نبي ورسول أيضاً ـ أي: صاحب رسالة ـ، وقليل من العارفين مَن صرح برسالته ومِن جملتهم الشيخ الأكبر [1] رضي الله عنه فقد ذكر في الجزء الثاني من الفتوحات ما نصه: (أربعة من الرسل أحياء: اثنان في السماء: إدريس وعيسى، واثنان في الأرض: الخضر وإلياس، عليهم الصلاة والسلام) [2].

وهناك عبارات للشيخ الأكبر رضي الله عنه في الجزء الثاني أو في بعض كتبه توهِم مَن قرأها بولاية الخضر، أما عبارته بنبوة الخضر عليه السلام وبرسالته فقد جاءت صريحة كما تقدم.

وأما عبارات الشيخ الأكبر التي توهم بولاية الخضر فإن الشيخ يذكر جملة من مقامات الخضر كالولاية، ومن هذا ما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٤١﴾ مع أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام رسول فكيف يذكر عنه سبحانه وصف الصديقية والنبوة، مع أن النبوة ليست من مستلزمات الصديقية؟

ففي هذه الآية معنى الصديقية: (صديقية النبوة)، وليست الصديقية العامة، أو أنه عليه الصلاة والسلام كان صِدّيقاً قبل النبوة فذكر الله مقاماته قبل النبوة.

---

[1] سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه ونفعنا ببركاته

[2] انظر (الفتوحات المكية) ٢/ ٦٤

ومَن قال إن الشيخ الأكبر يقول بولاية الخضر فيقال له: إن الشيخ أيضاً قال بنبوة الخضر ورسالته، فذِكره لولاية الخضر من باب ذِكره لمقاماته، وإلا فهو نبي رسول كما صرح بذلك رضي الله عنه.

ومِن الأدلة على نبوة الخضر ورسالته أنه قال لموسى عليهما السلام:

[أَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ الله عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ] فما هو العلم الذي علّمه الله تعالى موسى عليه السلام؟

إنه الشريعة والأحكام التي جاء بها موسى عليه السلام وعلم الوحي النبوي الخاص، فَقَرَنَ الخضر عليه السلام هذا بنفسه وقال: [إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ]..

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله عليه السلام كما أخبر عنه سبحانه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ أي: بل فعلته عن أمر من الله تعالى -وهو الوحي- ولا وحي لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وليس المراد من قوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ ليس المراد: عن إلهام من الله تعالى، لأن الولي ليس معصوماً في إلهامه، ولو أُلْهِمَ بقتل أحد لما جاز له قتله لأن الشريعة تمنعه من هذا، أما الوحي النبوي فعصمته ثابتة، فعندما أقدم الخضر على قتل نفس زكية طاهرة دل على أن ذلك بوحي من الله تعالى وعلى أنه عليه الصلاة والسلام نبي.

ومن الأدلة على نبوة الخضر عليه السلام ورسالته: أنه لو لم يكن رسولاً نبياً فكيف يأمر الله تعالى رسولاً نبياً وهو موسى عليه السلام أن يتّبع مَن ليس بنبي ورسول؟! أي: كيف يتبع المعصومُ مَن ليس بمعصوم؟!

إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ولو كلف الله المعصوم أن يتّبع ويقتدي بغير المعصوم لكلّفه فوق طاقته، تعالى عن ذلك سبحانه.

واعلم أن الأمور التي أجراها الخضر عليه السلام لو اطَّلع موسى عليه السلام على حكمتها وحقيقتها لأقرَّها بموجب شرعه عليه الصلاة والسلام؛ يدل على هذا أنه لما عرف حكمتها رأى أنها غير مخالفة لشريعته فسلَّم وأقرَّ بها.

سيدنا الخضر عليه السلام حي أم ميت؟

التحقيق: أنه عليه الصلاة والسلام حي، وقد خلقه الله تعالى في عهد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو من جملة من آمن بسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وأما قوله جلَّ وعلا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ -والخضر عليه السلام بشر بدليل أن موسى عليه السلام رآه مُسَجّىً أي مغطى بثوب- فهذه الآية الكريمة لا تنافي بقاء الخضر وحياته عليه السلام لأن الله تعالى أعطاه قوة في تغلب الحكم الروحاني على الحكم البشري.

ونظير هذا أن الله تعالى لما رفع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام إلى السماء لم يُبْقِهِ على بشريته المجردة التي كان عليها في الأرض ولو كان كذلك لاحتاج إلى طعام وشراب وقضاء حاجة... وهذا ينافي أحكام أهل السماء، فلقد غلبت روحانية عيسى عليه السلام على بشريته وصار جسمه تابعاً للروح خلافاً لنشأة الدنيا التي كانت الروح فيها تابعة للجسم.

ولما عرج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات وطوى هذه المراحل والعوالم كان الحكم لروحانيته صلى الله عليه وآله وسلم، وكانت بشريته ﷺ تابعة لها..

وعلى هذا فإن الخضر عليه السلام تغلبت روحانيته على بشريته، وقد أشار الله تعالى إلى تغلب روحانية عيسى عليه السلام على بشريته بقوله جل وعلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾

فقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾ إشارة إلى تروحن عيسى عليه السلام والتحاقه بالملائكة عليهم السلام.

وهناك طائفة من أولياء الله تعالى رضي الله عنهم أجمعين تغلب روحانيتُهم أجسامَهم، وتكون علاقتهم مع الخضر عليه السلام وهذا ما يعرف عند أهل الله تعالى بـ (تَجَسُّد الأرواح وتَرَوْحُن الأجساد).

أما تجسد الأرواح فهو كتجسد الملائكة عليهم السلام بصورة بشر، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧﴾ وهكذا...

وأما تروحن الأجساد فيكون بتلطفها ورقتها فتقطع المسافات الشاسعة بزمن يسير وتجتاز المفاوز وتخترق الحجب، إذاً الحكم عندئذٍ للروح لا للجسم.

وقد يتجسد الخضر عليه السلام حسب المناسبات بصور مختلفة كرجل صالح مسنٍ أو بصورة عجوز أو سائل؛ على حسب مقتضى الحال.

وإذا عثر الإنسان على شيء من هذا فليغتنمه إلا أن الشيطان لعنه الله يشغل الإنسان عن هذا ليحرمه من الخير.

واعلم أن تجول الخضر عليه السلام في العالم من باب الرحمة.. قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ فقد يحضر لإغاثة ملهوف أو نحو هذا.اهـ

قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ٦٤﴾ أي: رجعا يتّبعان آثارهما اتباعاً، والقَصَص اتباع الأثر.

﴿فَوَجَدَا عَبۡدًا مِّنۡ عِبَادِنَآ﴾ وهو الخضر وجداه جالساً على صخرة في الشاطئ كما جاء في رواية البخاري رضي الله عنه

﴿ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾ الوحي والنبوة وطول الحياة

﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمًا ٦٥﴾ بوحي من الله جلّ وعلا

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدًا ٦٦﴾

فيه دليل على ألّا يترك أحد طلب العلم -ولو بلغ نهايته-، وأن يتواضع لمن هو أعلم منه.

ولما ركب سيدنا موسى والخضر السفينة قال صاحبها: (أرى وجوه الأنبياء) ولم يأخذ منهما نَوْلاً أي أجراً.

ولما اقتلع الخضر عليه السلام لوح الخشب من السفينة قال له موسى عليه السلام كما أخبر عنه سبحانه: ﴿أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرًا ٧١﴾ أي: لقد جئت شيئاً عظيماً، ولما اقتلع الخضر عليه السلام لوح الخشب لم يتسرب الماء إلى داخل السفينة لأنه لما اقتلع اللوح الظاهر وضع لوحاً باطنياً غيبياً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرًا ٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرًا ٧٣ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾

فعل ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ من جملة الشرط وهو معطوف على فعل الشرط ﴿لَقِيَا﴾ وجزاء الشرط أي جوابه هو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا نُّكۡرًا ٧٤﴾، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ حرف عطف..

أما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ فإن فعل ﴿خَرَقَهَا﴾ هو جزاء الشرط وجوابه أما فعل الشرط فهو فعل ﴿رَكِبَا﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِيۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ٧٦﴾ يقال: (أعذرت فيما بيني وبينك في الفراق) أي أزلت عذري في فراقك، ويقال: (أعذره) : أي: أزال عذره ، والمعنى: (لم يبقَ عندي عذر أعتذر به إليك).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ وهي إنطاكية، أو الأبلّة -وهذا قول ابن سيرين وهو الظاهر والمعتمد- وإن كان الأكثرون على أنها إنطاكية على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد مشى موسى والخضر عليهما السلام على ساحل البحر.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: (الأُبُلَّة أبعدُ أرضِ الله من السماء)[1] أي: أشدها انخفاضاً.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ يقال: (ضيَّفه): أنزله ضيفاً، ويقال: (ضافه): أي: قدَّم له الضيافة، فقوله تعالى: ﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ أي: أبوا أن ينزلوهما ضيوفاً، فمن باب أولى لم يضيفوهما، ولذلك قيل: (شر القُرى مَنْ تَبْخل بالقِرى) يعني تبخل بإكرام الضيف..

---

[1] انظر (الدر المنثور) ٦/ ٣٩٣

ومما ذكر في شواهد ذلك قولهم:

وحُرمَةِ الشّيخِ الذي سنّ القِرَى [1] وأسّسَ المحْجوجَ في أُمّ القُرَى [2]

ما عِندَنا لِطارِقٍ إذا عَرا سوى الحديثِ والمُناخِ [3] في الذَّرَى

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا﴾ التنكير لبيان شأن هذا الجدار وأنه ذو متانة وعلو، طوله مائة ذراع، وهو من الأبنية القديمة المتينة .

﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ أي: يريد أن يسقط، وأسند الإرادة للجدار من باب الاستعارة، والاستعارة نوع من أنواع المجاز لأن المجاز إما مجاز مرسل أو مجاز بالاستعارة، وكل مجاز يقابله حقيقة، فاستعيرت الإرادة للجدار وكأنه إنسان لو استنطقناه لقال: (إنه يريد أن ينقض)، وهذا مذهب الجمهور على أن القرآن الكريم فيه مجاز واستعارات.

---

[1] أي الضيافة

[2] وهي مكة المكرمة

[3] موضع البروك

وقد ذهب بعض الأكابر ومنهم أبو إسحاق الإسفراييني[1] إلى القول بأن القرآن الكريم ليس فيه مجاز، وأن كل ما جاء فيه حقيقة لأن الله تعالى إنما يذكر الحق والحقيقة الواقعة، والمجاز خروج عن الحقيقة، كيف هذا والله تعالى يقول: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾ ولو كان في كلام الله مجاز لقيل عن الحق سبحانه: (إنه متجوِّز) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، إذ لا يَستعمل المجاز إلا مَن عجز عن التعبير عن الحقيقة ، وفي هذا وصف لله تعالى بالعجز عن البيان!

وأما قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ فقد أسند الله تعالى أموراً كثيرة للجمادات على وجه الحقيقة فمن هذا: أن الجمادات تنطق، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، ومِن هذا: شهود الأعضاء والأجزاء على الإنسان يوم القيامة، وشهودها يكون بكلام حقيقي وليس مجازاً .. قال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾..

---

[1] قال الحافظ الذهبي في (سير أعلام النبلاء) ١٧/ ٣٥٤: أبو إسحاق الإسفراييني الإمام العلامة الأوحد، الأستاذ، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، الإسفراييني الأصولي الشافعي، الملقب ركن الدين، أحد المجتهدين في عصره، وصاحب المصنفات الباهرة، توفي بنيسابور يوم عاشوراء من سنة ثماني عشرة وأربع مئة. اهـ

رحمه الله تعالى ورضي عنه

وقد سبَّحت الحصى في كف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع الصحابة ذلك[1]، وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الْإِنْسَ، وَحَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ] فإسناد هذه الصفات إلى الجمادات إسناد حقيقي على أن هذه الصفات مناسبة لها ولائقة بها .

وأما من ذهب إلى أن في القرآن مجازاً فقال: (إن ذلك ليس مِن باب عجز الحق سبحانه عن البيان، ولكنه سبحانه أنزل القرآن بلسان عربي مبين، والعرب تستعمل المجاز في كلامها).

والحق: أنه ليس كل ما قيل عنه: (إنه مجاز) فهو مجاز..

---

[1] جاء في مسند البزار والمعجم الأوسط للطبراني عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

[فتناول النبي صلى الله عليه وسلم سبع حصيات أو تسع حصيات فسبّحن في يده حتى سمعتُ لهن حنيناً كحنين النحل، ثم وضعهن فخرِسْنَ ، ثم وضعهن في يد أبي بكر فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل فوضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن ، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبّحن في يده حتى سمعت لهن حنيناً كحنين النحل ، ثم وضعهن فخرسن] – أي: لم يَعُدِ الصحابة يسمعون صوت تسبيحهن .

وأما الكناية فجاء ذِكرها في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ [1] و(الغائط) هو المكان المنخفض، ولو لم يكن في هذه الآية كناية عن قضاء الحاجة لوجب على كل من نزل منخفَضاً من الأرض أن يتوضأ!

فالمراد من الآية ما يلزم من مجيء الإنسان من الغائط وهو أنه قضى حاجته.

وقوله تعالى : ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾

قالوا: (يعني اسأل أهل القرية) ـ والخطاب لسيدنا يعقوب عليه السلام ـ فهذا فيه نظر....

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ أي: مسحه بيده ورفعه بقدرة الله تعالى، والقول الذي ذكره النسفي أن الخضر عليه السلام نقضه ثم بناه ليس بصحيح لأن حال سيدنا موسى والخضر عليهما السلام كان حال الجوع والتعب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾﴾: أي طلبت جُعلاً -وهو حصة من المال تُجعَل للإنسان- وفي هذا دليل جواز تعاطي الرجل الأجْر ولو كان على درجة من الصلاح لأن موسى والخضر هما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾: أصله مِنْ (أخذت) والاتخاذ [2] على وزن الافتعال.

---

[1] يقال في اللغة: (غاط) أي: انخفض، انظر (لسان العرب) مادة (غوط)

[2] ذهب المفسرون إلى أن أصل هذا الفعل (تَخِذَ) كـ (تَبِعَ)، نقل إلى باب الافتعال، زيد في أوله ألف وفاء بين التاء والعين فصار (اتخذ) (تخِذَ – يتَّخِذْ) (أخذ- يأخذ) =

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ هذا إشارة إلى الاعتراض الثالث؛ أي: إن هذا الاعتراض سبب الفراق.

وقرئ: [هذا فراق بيني وبينَك] والأصل: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ والظرف محله النصب، لكن لما أضيف ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي﴾ جرَّ ﴿وَبَيْنِكَ﴾ فهي معطوفة على ﴿بَيْنِي﴾ ومحلها الجر، وهذا من باب إضافة الكلمة إلى الظرف أي إلى المفعول فيه، كما يضاف أيضاً إلى المفعول به.

وقوله تعالى مخبراً عن الخضر عليه السلام قوله: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ ولم يقل عليه السلام: (بيننا) لتأكيد الفراق وعدم الوفاق فيما بينهما، كما قال له أول اللقاء: [يَا مُوسَى إِنِّي عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَنِيهِ لَا تَعْلَمُهُ أَنْتَ، وَأَنْتَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عِلْمِ اللهِ عَلَّمَكَهُ اللهُ لَا أَعْلَمُهُ].

وإن أصل البين ما كان فاصلاً بين اثنين، وليس لكل واحدٍ بَيْنٌ، وإنما ذكر: ﴿بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ لتأكيد الفراق، وهذا يدل أيضاً على أن الخضر لا يستطيع أن يتبع سيدنا موسى عليهما السلام ويوافقه على كل أمر.

وجاء في الحديث قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: [يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى؛ لَوَدِدْتُ أَنَّهُ كَانَ صَبَرَ حَتَّى يُقَصَّ عَلَيْنَا مِنْ أَخْبَارِهِمَا][1].

=أما علماء اللغة فقالوا : إن أصل الفعل (اتخذ): مِن (أخذ –يأخذ) ونقلت إلى باب الافتعال بتسهيل الهمزة وأبدلت الياء في أوله تاءً كفعل (اتّرز)، وبعدما كثر استعمالها صاروا يقولون: (تخذت – لاتخذت) .

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفضائل

وقال الشيخ الأكبر رضي الله عنه أخذاً من هذا الحديث الشريف: (لو صبر موسى لأجرى له الخضر ألف مسألة)[1].

قوله تعالى مخبراً عن الخضر عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾

الأصل في تأويل الشيء: ما يؤول إليه الشيء، ومنه قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ أي مآلاً ، وقد يطلق التأويل على تحقيق القول بالعمل ومنه ما ورد عن أم المؤمنين الصِّدّيقة بنت الصِّدّيق رضي الله عنهما السيدة عائشة أنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : [سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي] يتأول القرآن)[2] ، يعني يتأول قول الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾.

ومعنى قولها رضي الله عنها: [يتأول القرآن] أي: يحقِّق ﷺ الآية ويطبِّقها.

وقد يطلق التأويل على تفسير كلمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ -إذا كان الوقف على قوله تعالى ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾- فالمراد من قوله تعالى: ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ أي: تفسيره أي معناه الظاهر.

و(التفسير) و(الفَسْرُ) و(الإسفار) مِن : (فَسرَ) و(سَفَر) : يعني (الوضوح) .

وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون ﴿تَأْوِيلَهُ﴾ أي: تفسيره، أي: ما سفر وظهر لهم.

---

[1] كما في (الفتوحات المكية) ٣/ ٣٨٧

[2] انظر مصنف عبد الرزاق واللفظ له وهو في الصحيحين بلفظ قريب.

أما إذا كان المراد من قوله تعالى: ﴿تَأۡوِيلَهُۥ﴾ حقيقةَ ما تؤول إليه الصفة فيكون الوقف على قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويكون المعنى: (وما يعلم تأويل القرآن وحقيقته [1] إلا الله جل جلاله).

فقول الخضر عليه الصلاة والسلام كما أخبر سبحانه عنه: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ﴾أي: بمآل ما تؤول إليه أفعالي التي فعلتُها... فمآل السفينة فيما لو بقيت صالحة أن يغتصبها الملك، ومآل الغلام إذا كبر أن يكون سبباً في كفر أبويه وهكذا ...

قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ قيل: كانت لعشرة أخوة؛ خمسة منهم زَمْنى، وخمسة يعملون في البحر ، وكلمة (زَمْنَى) على وزن (مرضى)، والزَمِنُ هو: المريض المُزْمِن.

وسماهم سبحانه ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾ لأن فيهم العامل والمريض، ولو كانوا أغنياء لما اشتغلوا عمالاً بأنفسهم عليها، واستدل بعض الفقهاء من هذه الآية على أن الفقير أشد حاجة من المسكين، وقالوا: إن الفقير لا يملك شيئاً، أما المسكين فيملك شيئاً لكن لا يكفيه، فالسفينة كانت لمساكين فسماهم سبحانه ﴿لِمَسَٰكِينَ﴾.

وذهب بعض الفقهاء إلى أن المسكين أشد فقراً من الفقير مستدلاً بالآية ﴿أَوۡ مِسۡكِينًا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦﴾ أي: لا شيء عنده غير التراب، وقالوا في قوله تعالى: ﴿لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ أي لجماعة ضعفاء في نظر الملك الغاصب فهم مساكين لضعف جانبهم وقوتهم ، وإلا فهم يملكون سفينة.

---

[1] من حيث المتشابهات

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ ليس المراد أنه كان خلفهم، ولو كان كذلك لمرُّوا عليه وكُفوا شره ، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ أنه كان أمامهم ولكن توارى عنهم، وكل شيء توارى عنك فهو وراء؛ سواء كان خلفك أو أمامك.

وهناك من قال: إن الملك كان خلفهم وراح يتتبعهم ليغتصب السفينة منهم فكان وراءهم في الطلب.

واعلم أن اقتلاع سيدنا الخضر عليه السلام للوحٍ من السفينة لم يره إلا سيدنا موسى عليه السلام، ولو رأى الركاب ذلك لمنعوا الخضر عليه السلام من هذا، ولما اقتلع الخضر عليه السلام رأس الغلام -وكان الغلام بين الصبيان يلعب- لم يره أحد إلا سيدنا موسى عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ أي يأخذ كل سفينة صالحة، وفُهم هذا من تنكير كلمة (السفينة).

﴿غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾: مصدرٌ أي أخذاً غصباً، أو مفعول لأجله والمعنى للاغتصاب .

وقد جاء ذكر السبب وهو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ مقدماً على المسبّب وهو قوله تعالى: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ وهذا التقديم للعناية والاهتمام بأمر السفينة وسلامة أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ﴾ ذهب المفسرون إلى أن كلمة ﴿ٱلْغُلَٰمُ﴾ لا تطلق إلا على مَن هو دون البلوغ، كما تطلق كلمة (الجارية) على مَن هي دون البلوغ من النساء لأنها تجري في خدمة أهلها، وليست (الجارية) بمعنى (الخادمة) كما هو على ألسنة العوام.

وقد تطلق كلمة ﴿ٱلْغُلَٰمُ﴾ على البالغ، كما تطلق على البالغة من النساء أحياناً.

والحق والظاهر: ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] أن الغلام الذي قتله الخضر كان بالغاً ولم يظهر منه الكفر الصريح، وإنما نشأ على الشر والفساد، وكان يقطع الطريق وينهب الأموال من أهلها ويحلف لوالديه أن هذا المال من كسبه وحلاله، وكانت كثرة تماديه وفسقه ستؤدي به إلى الكفر الصريح، ولو لم يكن الغلام بالغاً لما وُصف بالكفر لأنه لا يصح أن يقال عن الصغير: (إنه كافر) -ولو تكلم بكلمة الكفر- لأنه دون التكليف وإنما يوعَظ ويزجَر.

ومِن هذا لما وُصف هذا الغلام بالكفر في قوله تعالى: ﴿يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠﴾ دل على أنه بالغ وإنما سمي غلاماً لشدة اغتلامه -أي شهوته- لأنه شابٌّ في مقتبل العمر[2]

---

[1] انظر ما ذكره القرطبي حول تفسيره للآية الكريمة

[2] جاء في الحديث: [إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طُبِعَ كَافِرًا، وَلَوْ عَاشَ لَأَرْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا] رواه الإمام مسلم في صحيحه، أي: لكنه لم يعِش فمصيره كمصير صبيان المؤمنين وصبيان الكفار وأهل الفترة والشواهق والمجانين فمنهم ناجون لأن الله تعالى رتب الجزاء على العمل فقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٣﴾ ولا يجازي اللهُ تعالى العبدَ يوم القيامة على موجب علمه سبحانه به بل يجازي على ما فعله العبد، فهذا الغلام لم يكبر ويكفر ، وفِعلُ الخضر معه رحمةٌ فقتله صغيراً حتى يدخل الجنة، أما لو عاش فمآله إلى النار، وعكس هذا ما ورد في حق السيد إبراهيم ولد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال فيه سيدنا رسول الله ﷺ: [لَوْ عَاشَ لَكَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا] أي لَقُدِّر له أن يكون نبياً لكنه رضي الله عنه لم يعش، والحديث رواه ابن ماجه في سننه ورواه غيره..

وقد أمر اللهُ تعالى الخضر عليه السلام بقتله غيرة على والديه من أن يتّبعاه، لأن الوالدين قد يكفّران الولد ، والولد قد يكفّر والديه .

قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ هو كلام مَنْ ؟

هذا كلام الخضر عليه السلام ، لأن الله تعالى يذكر كلام الخضر -على وجه معجز- ولو كان هذا الكلام كلام الخضر نفسه لكان كلام الخلق معجِزاً، ولا إعجاز إلا في كلامه سبحانه ... يدل على هذا سياق الآيات: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ٧٨ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ وهكذا .....

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ هو من كلام الحق تبارك وتعالى فهو سبحانه القائل: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ٨٠﴾ وفسروا الخشية في هذه الآية بـ (العلم) أي: (فَعَلِمْنا) وهذا ليس من الصحة في شيء إذ هناك فرق كبير في المعنى بين قوله تعالى: ﴿فَخَشِينَآ﴾ وبيْن: (فَعَلِمْنا).

وإن البحث الذي يلفت النظر أنه لو كانت الخشية من الخضر فقط لقال: (فخشيت) كما قال عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾..

أما قوله عليه السلام: ﴿فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ لأن جعل السفينة معيبة ظاهره الشر، ولم ينسب ذلك إلى الله تعالى أدباً، ولا يجوز نسب الأفعال الموهِمة بالشر إلى الله تعالى.

ولما كان الفعل محض الخير نسب ذلك إلى الله تعالى كما أخبر سبحانه عنه قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾..... الآية .

ولما ذكر الغلام وقتله له قال كما أخبر سبحانه عنه: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ لأن الإرادة من جانب الحق سبحانه إنما هي لتخليص الأبوين من الغلام وهي محض الخير، وأما الخضر عليه السلام فأراد قتل الغلام وهذا ظاهره الشر وباطنه الخير فلما اجتمعت إرادة الحق سبحانه وإرادة الخضر قال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾.

أما قوله: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ فهو من كلام الخضر عليه السلام، ولم يقل: (فخشيت) إذ هل يتصف الله تعالى بالخشية؟

وأما ما يقال: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وردت فيه قراءة شاذة: [إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ] -وتنسَب هذه القراءة إلى أبي حنيفة رضي الله عنه- فإن ثبتت -رغم ضعف سندها-[1] فإن المراد من الخشية هنا: خشية هيبة وإكرام لأهل العلم، ومثاله ما جاء في قول بعضهم:

أهابك إجلالاً وما بك قدرة عَلَيَّ ولكن ملءُ عين حبيبها

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ ابن الجزري رحمه الله في كتابه (النشر في القراءات العشر) ١/ ١٦ حيث صرح بأن هذه القراءة لا أصل لها، وأنها منسوبة إلى الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وهو بريء منها

وهذا المعنى في الخشية وهو الإجلال والمهابة لا يُفَسَّرُ به قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ ولا مناسبة لهذا المعنى مع الغلام في قصة الخضر عليه السلام.

ولبيان معنى قول الخضر عليه السلام: ﴿فَخَشِينَآ﴾ نقول:

اعلم أن هناك فرقاً بين (الخوف) و(الخشية)، وقد يتفقان في المعنى، وقد يختلفان، فالخوف أعم من الخشية؛ بمعنى أن الخوف قد يكون ممن تعلم أو لا تعلم -كخوفك من شبح رأيته من بعيد ولا تعلم حقيقته أهو إنسان أم غير ذلك- أما الخشية فتكون عن علم بالمخشيِّ منه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ فقوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ يتضمن العلم الذي علَّمه الله للخضر عليه السلام بما عليه أمْر الغلام وأبويه، وأن هذا العلم أثَّر في الخضر عليه السلام وحمله على الخشية فقال: ﴿فَخَشِينَآ﴾ ليدل على أن خشيته إنما حصلت له عن علم من الله تعالى بحال الغلام وأبويه، وكان أثَرُ هذا في الخضر عليه السلام أن تأثر وخشي على الأبوين من الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾

جمع بين إرادته وإرادة الله تعالى، إلا أن إرادة الله تعالى محض الخير.

ويستدل من هذه الآية على أن الجمع في ضمير واحد بين الخالق والمخلوق: جائز.

وهناك من لم يجوِّز ذلك واستدل بما رواه مسلم وغيره عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (مَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَقَدْ غَوَى)، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ][1] أي: يجب أن تقول: (ومن يعص الله ورسوله فقد غوى).

---

[1] انظر صحيح مسلم كتاب الجمعة وسنن النسائي كتاب النكاح

والحق أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعترض عليه لأنه أشرك الخالق والمخلوق في ضمير واحد بل لأنه وقف على قوله :(ومن يعصهما) ثم تابع فقال: (فقد غوى) وصار كلامه موهِماً[1]، وهذا هو وجه اعتراض النبي صلى الله عليه وسلم عليه، وليس لأنه جمع بين الخالق والمخلوق في ضمير واحد إذ ورد كثيراً في كلامه صلى الله عليه وسلم الجمع في ذلك كقوله ﷺ: [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا] .. الحديث كما في الصحيحين وغيرهما.

أما من قال: (إن سبب اعتراضه صلى الله عليه وسلم على الخطيب أنه أحس منه تسوية الخالق مع المخلوق) فهذا القول ليس بصحيح لأنه صحابي جليل وخطب بين يدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يصدر منه أن يسوّي بين الخالق والمخلوق؟!

ولو كان الأمر هكذا لقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أشركت)...

وعلى هذا فيجوز أن تجمع بين الخالق والمخلوق في ضمير واحد كقول الخضر عليه السلام كما أخبر سبحانه عنه ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ وليس في هذا المعنى التسوية في الفعل وإنما هو على وجه الإخبار.

---

[1] انظر ما ذكره الحافظ ابن رجب رحمه الله في كتابه (فتح الباري) ١/ ٣٠

فائدة

قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للأنصار رضي الله عنهم في الحديث:

[إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ][1] فيه دليل على جواز إشراك الله تعالى ورسوله في الضمير العائد إلى الفعل -مع عدم التسوية أو التشبيه في الفعل-.

ونظيره ما ورد عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا][2].. الحديث

والضمير في قوله صلى الله عليه وسلم: [سِوَاهُمَا] عائد إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد جاء جواز ذلك في كثير من الأحاديث النبوية، منها ما قاله المقداد بن الأسود لرسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر:

(يَا رَسُولَ الله، امْضِ لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، فَنَحْنُ مَعَكَ، وَالله لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾، وَلَكِن: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ) ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِهِ[3].

---

[1] طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير

[2] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما في كتاب الإيمان

[3] انظر (دلائل النبوة) للبيهقي وعزاه الحافظ ابن حجر في فتح الباري لابن أبي حاتم بمثل هذا اللفظ.

والدليل قول المقداد: (إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ)، وإن آية: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ ليست دليلاً على ذلك لأنها إخبار عن قول بني إسرائيل، إذ إنهم كانوا يجهلون أموراً في تجريد التوحيد فلا يستدل بكلامهم.

وأما قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي: إن الله تعالى يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، وملائكته يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم، وصلاة الله تعالى تختلف عن صلاة الملائكة.

قوله تعالى مخبراً عن الخضر عليه السلام قوله: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ أي: طهارة من الذنوب

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ أي: رحمة وعطفاً

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ كان تحت الجدار لوح من ذهب مكتوب فيه: (عجبت لمن يؤمن بالقدَر كيف يحزن، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ).

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾

قيل: إن السائل هم اليهود، وقيل: إن السائل هو أبو جهل وجماعته قبل هجرته عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة وذلك أن أبا جهل وأشياعه ذهبوا إلى المدينة المنورة وطلبوا من اليهود أن يُمْلوا عليهم أسئلة يسألون عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تكون أجوبة هذه الأسئلة لا يعرفها إلا نبي..

وعلى هذا فتكون الآيات مكية، ويحتمل أن السؤال كان مرتين، حيث سأل المشركون رسول الله ﷺ وسأله اليهود عن ذلك أيضاً، وعلى هذا فقد نزلت الآية مرتين، ولهذا نظائر كثيرة من آيات الله تعالى كقوله جل وعلا: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ فقد نزلت في مكة عندما سأل المشركون عنها رسول الله ﷺ، ونزلت في المدينة عندما سأله عنها اليهود، فقد يتعدد نزول الآية كما ورد في سورة الفاتحة مثلاً وسورة الإخلاص وغيرهما[1].

---

[1] انظر (تفسير ابن كثير) لأول سورة الفاتحة

وإنَّ تعدد النزول هذا لحكم عالية منها:

أن يبيّن الله تعالى أن رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتكلم عن هواه، ولا يجيب من نفسه إلا بأمر من الله تعالى ووحي منه جلَّ وعلا .

فلما سأل المشركون رسول الله ﷺ عن الروح ـ وكان ﷺ في مكة ـ نزلت الآية وفيها الجواب.

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة سأله اليهود عن الروح فلم يجبهم بما أجاب به المشركين مِن نفسه؛ حتى نزلت عليه الآيات وفيها الجواب مرة ثانية، وفي هذا بيان أنه صلى الله عليه وسلم رسول الله حقاً ولا يتكلم إلا عن الله تعالى.. قال جل جلاله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

والرواية التي أوردها النسفي رحمه الله تعالى عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال عن ذي القرنين: (إنه ضُرب على قرنه الأيمن فمات فبعثه الله ثم ضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله تعالى) .... هذه الرواية ضعيفة.

والرواية الثابتة عن سيدنا علي رضي الله عنه أن ذا القرنين دعاهم إلى الله تعالى فضربوه على جانبه الأيمن ضربة قاضية فشُجَّ وأغمي عليه ولم يمت ثم دعاهم إلى الله بعد مدة فضربوه كذلك على جانبه الأيسر فحفظه الله تعالى.

وما أورده النسفي رحمه الله تعالى من حديث مرفوع: (سمي ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا) -يعني جانبيها شرقها وغربها- هذا الحديث لا سند له.

لِمَ سُمِّيَ (ذو القرنين) بذلك؟

اختلفت أقوال المفسرين في ذلك والحق أنه سمي (ذا القرنين) لأنه عاش قرنين ومعنى القرن: مُدَّةُ معيشة الأقْران أي الجيل، وهذه المدة تختلف من أمة إلى أخرى، فالقرن في قوم عاد مثلاً : ثلاثة آلاف سنة لأنهم كانوا يعيشون هذا، وعلى هذا فلما ذكر الله عن فرعون قوله: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ أي ما حال الأجيال المتقدمة؟.

وقد أُطلِق القرن -بمعنى مدة حياة الجيل- على مائة سنة دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ الله يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ] ـ أي على رأس كل جيل ـ [مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا][1] فذو القرنين عاش قرنين أي أدرك جيلين أي أن عمره مضاعف، وقد أعطاه الله القوة والملك طيلة حياته.

[1] انظر (سنن أبي داود) كتاب المَلاحم و(مستدرك الحاكم) و(المعجم الأوسط للطبراني)، وقال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة: (وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث).

تنبيه

الأحاديث الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذ من كتب الحديث المعروفة والتي تبيّن سند كل حديث ورتبته، أما ما يرويه أصحاب التفاسير أو السِّيَر[1] والمغازي أو التاريخ من أحاديث دون ذكر رواتها فلا يعتمَد عليها إلا بعد الرجوع إلى كتب الحديث لمعرفة سند هذا الحديث ورتبته.

وعلى هذا فإن ذا القرنين عليه السلام عاش مدة طويلة تقدر بحياة جيلين -وذلك لأنه طاف الدنيا ولم تكن المراكب وقتئذٍ ميسرة فلا بد إذاً من أن يعيش هذه الفترة مع القوة والتمكين-.

[1] المرجع في (سيرة ابن هشام) هو (الروض الأُنُف للسهيلي) وفيه تحقيق وتخريج لما ذكره ابن هشام .

في أي زمن وُجِد ذو القرنين؟

اعلم أن ذا القرنين يلقب بـ (الإسكندر)، فمِن العلماء مَن ذكر أنه كان بعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومنهم من ذكر أنه بعد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام.

والحق أن هناك مَن لَقَبُهُ (الإسكندر) بعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهناك من لقبه (الإسكندر) بعد سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، أما الإسكندر -الذي هو ذو القرنين- فكان بعد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمدة وجيزة، ويلقب بـ (الإسكندر اليوناني المقدوني) ويرجع نسبه إلى يافِثَ بن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام[1]، وأما الإسكندر الذي هو بعد عيسى عليه الصلاة والسلام فيلقب بـ (الإسكندر الرومي).

وقد اجتمع ذو القرنين مع الخضر عليهما السلام لأن كلاً منهما كان في عهد سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولذلك جاء ذِكر ذي القرنين بعد ذِكر الخضر، وكان الخضر عليه السلام مِن وزراء ذي القرنين وحامل لوائه الأعظم حين طاف الأرض.

---

[1] لأن أولاد سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام -الذين ركبوا معه السفينة- ثلاثة هم: حام، وسام، ويافث، وجاء في مسند الإمام أحمد وغيره قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [سَامُ أَبُو الْعَرَبِ] أي يرجع نسبهم إليه [وَحَامُ أَبُو الْحَبَشِ] وهم السودان [وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ].

وقد اختلف العلماء في ذي القرنين -كما اختلفوا في الخضر- هل هو من عباد الله الصالحين أم من الأنبياء عليهم السلام؟

وقد تقدم الكلام على إثبات نبوة الخضر عليه السلام، أما بالنسبة لذي القرنين عليه السلام فلم يرد شيء من الأحاديث الصحيحة يقطع الخلاف، ولم يرد عن سيدنا علي كرم الله وجهه في ذلك حديثٌ سندُهُ قوي.

والحق أنه عليه السلام نبي، وأدلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾

وهذا وحي تشريعي من الله تعالى -لأن الإقدام على أمر التعذيب والقتل أو غير ذلك: أمر تشريعي لا يكون إلا من باب الوحي-، وأما من قال: (إن ذا القرنين ولي وقد أوحي إلى نبي زمانه أن قل له كذا وكذا) فيقال له: لو كان ذو القرنين عبداً صالحاً ثم صار ملِكاً فلا يخاطب بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ ، ولهذا نظائر في القرآن الكريم منها:

ما أخبر سبحانه عن طالوت -وكان عبداً صالحاً من عباد بني إسرائيل، ولم ينزل عليه الوحي- وقد بيّن هذا سبحانه فقال عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ﴾ وهو نبي الله شمعون عليه السلام ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾

فكان طالوت يعمل بشرعِ وأمرِ شمعون عليه السلام وما يوحيه الله تعالى إليه، ولم ينزل الوحي إلى طالوت ولم ترد آية فيها: (قلنا يا طالوت)، وكان من جملة قادة جيوش طالوت: سيدنا داود عليه السلام قبل أن يُنَبَّأ.

ولما قتل داود جالوت أعطاه الله تعالى الملك أي: جعله ملكاً، وأعطاه الحكمة ـ أي النبوة ـ كما في الآية: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾...

ولو أن ذا القرنين كان ملِكاً ولم يكن نبياً لنزلت فيه الآيات كما نزلت في طالوت والحق أنها نزلت بقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ... ﴾ وهذا هو الوحي.

ولا ينافي كون الخضر وذي القرنين عليهما السلام لا ينافي كونهما أنبياء أنهما اجتمعا في زمن واحد، فقد وُجد في زمن واحد عدة أنبياء كما هو الحال في سيدنا زكريا وسيدنا يحيى وسيدنا عيسى عليهم الصلاة والسلام، لكن كان لكل واحد منهم نوع من الأوامر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ[1] وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾

أي إنا جعلناه متمكناً في الأرض وأعطيناه أسباب التمكين والملك في الأرض -وذلك بقوة الأتباع والجنود وقوة الأسلحة- كما قال جل وعلا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.. أي نجعل لهم المكانة والقوة في الأرض.

---

[1] ليس المراد من قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المكانة والرتبة لأن هذا حاصل لكونه عليه السلام نبياً.

أما قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ٨٤﴾ فلا يعني هذا أن الله تعالى أعطى ذا القرنين عليه السلام أسباب كل شيء -كما لو أراد أن يصعد إلى السماء أو نحو هذا- لذلك اعلم أن أدوات العموم لها مُخَصِّصات حسب السياق فقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ٨٤﴾ أي آتيناه من كل ما يؤتاه المِلك من أسباب القوة والملك والتمكين، ونظير هذا قوله تعالى في بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ ـ أي مما تؤتاه الملوك ـ..

والمخصصات قد تكون عقلية أو لغوية أو شرعية [1] وهذا من باب المخصصات العقلية..

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبًا ٨٤﴾ السبب: هو الطريق الموصل للمقصود، ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ (تبع) و(أتبع) بمعنى واحد مثل (قفا) و(اقتفى)، أما (اتَّبَعَ) فأكثر علماء اللغة على أنها بمعنى (تبع) و(أتبع)، ومنهم من فرَّق فقال: (تبع) و(أتبع) أي: لَحِقَ بالآخر ولم يصل إليه، أما (اتّبع) فيعني أنه لحقَهُ ووصل إليه.

ولم يفرق أكثر علماء اللغة في معنى هذه الأفعال الثلاثة وقالوا:

كلها بمعنى: (لحق بالآخر) وقد يصل إليه، وقد لا يصل.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ﴾ أي: منتهى العِمارة نحو المغرب وكذلك المطلع.

---

[1] الأحكام الشرعية العامة تُخَصَّصُ بنصٍ بعدها، وعند السادة الأحناف يجب أن يكون المخصص متصلاً بالنص العام، أما عند السادة الشافعية فلا يشترط في التخصيص اتصاله بالنص العام، وقد يَرِدُ بعد مدة منفصلاً.

يقال: (غَرَبَ -يَغْرُبُ)، والمصدر (غروباً)، واسم المكان والزمان (مَغْرِب) وهو موضع غروب الشمس، فبلغ ذو القرنين منتهى موضع غروب الشمس بالنسبة للعمران بحيث لا يوجد وراء ذلك إلا البحار المحيطة.

قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾

الحمئة : الطين المتغير لونه.. قال جل جلاله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

وقد ذكر الله تعالى ما رآه ذو القرنين من غروب الشمس في عين حمئة، ولم يقل سبحانه: (فإذا هي تغرب في عين حمئة) لأن الشمس تسير في فلكها، فالله تعالى يذكر ما رآه ذو القرنين من أن الشمس تغرب في عين حمئة ـ أي طرف الشاطئ الذي انتهى إليه بصره-، وهذا إخبار من الله عما رأى ذو القرنين وليس إخباراً عن حقيقة الواقع .

ونظير هذا ما ذكره سبحانه عن موسى عليه السلام عندما خيل إليه أن الحبال والعصي تتحرك.. قال عز من قائل: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ فذكر سبحانه ما خُيِّل إلى موسى عليه السلام ولم يذكر الحقيقة وهي أن هذه الثعابين والحيات ما هي إلا حبال وعصي ، ولكن ذكر أثر السحر.. قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾ أي: إن أثر السحر جعل الحاضرين يرونها ثعابين، ولكن الحبال والعصي لم تنقلب إلى حيات وثعابين حقيقية، ولو أن أحداً جاء من مكان بعيد ولم يتأثر بالسحر لرأى الحبال حبالاً والعصي عصاً كما هي ، فلما ألقى موسى عصاه راحت تلقف ما يأفكون ..

قال جل جلاله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي أبطلَت السحر، فظهرت للحاضرين الحبال والعصي على حقيقتها، ولم تبتلع عصا موسى عليه السلام الحيات إذ لم يقل سبحانه (تلقف الحيات والثعابين) فافهم.

لطيفة : رأى أحدهم قافلة من الخيل قد انتشر الغبار من آثار وقع حوافرها على الأرض فركب حماراً وتبعهم زاعماً أن لا أحد يراه بسبب الغبار فقيل له :

سوف ترى وينجلي الغبار أَفَرَسٌ تحتك أم حمار

فالسحر الذي جاء به سحرة فرعون إنما هو كما أخبر سبحانه: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ فراح الناس يرون الحبال والعصي يرونها حيّات .. قال جل جلاله: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾

ولم تنقلب العصي والحبال بأعيانها إلى حيات وثعابين ، أما عصا موسى عليه الصلاة والسلام فقد انقلبت بحقيقتها إلى ثعبان كبير كما أخبر سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

والمذهب المعتمد عند أهل السنة هو أن السحر مهما بلغ في قوته فلا يمكنه قلب الحقائق والأعيان، وإنما تأثيره في التخييل للغير.

وجاء في قراءة: {وجدها تغرب في عين حامية}[1] أي: حارة، ولا تنافيَ في هذا فإن العين جامعة للوصفين لأن الطين المتغير لا بد أن الحرارة قد أثَّرت فيه.

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ وكان طعامهم ما لَفَظَهُ البحر أي ما ألقاه البحر.

---

[1] وهي قراءة الكسائي رحمه الله تعالى ورضي عنه

واللفظ هو الإلقاء ومنه: (لفظُ الكلام) أي إلقاؤه، ولذلك لا يصح نسبة (اللفظ) إلى الله جل وعلا، وإنما يتصف سبحانه وتعالى بصفة الكلام، وعلى هذا فإن قاعدة الأصوليين: (خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ) لا يصح تطبيقها على القرآن الكريم وإنما يقال: (خصوص السبب لا يمنع عموم الكلام) ـ أي كلام الحق جل وعلا ـ.

وقد تحاشى بعضهم نسبة الحكاية إلى الله تعالى، فلا يصح أن يقال: (إن الله تعالى حكى كذا) لأن (الحكي) مِن (المحاكاة) أي: المشابهة، وقد أجازها بعضهم من باب التسامح لكن التحاشي أولى ، ويجوز أن يقال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحكي عن الله تعالى ...

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾﴾ وهذا التخيير لذي القرنين عليه السلام دليل على نبوته ووحي الله له، ونظير هذا قوله سبحانه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن مكّنه من المشركين: ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ ـ أي: بالقتل ـ ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي له الفَعلة الحسنى جزاء

وقوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ﴾ خبر مقدم ﴿جَزَآءً﴾ تمييز ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر ، والمعنى: (فله الحسنى جزاءً)

أو يكون إعراب قوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف تقديره: (نجزيه جزاءً) أي من حيث الجزاء له الحسنى.

وهناك قراءة: {فله جزاءُ الحسنى}[1] أي: جزاءُ الفَعْلة الحسنى ـ وهي كلمة الشهادة-.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٨٩ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطۡلِعَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَطۡلُعُ عَلَىٰ قَوۡمٖ لَّمۡ نَجۡعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتۡرٗا ۝٩٠﴾ أي أبنية، وإنما بيوتهم في المغارات والسراديب.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي أمر ذي القرنين كذلك أي كما وصفناه تعظيماً لأمره

﴿وَقَدۡ أَحَطۡنَا بِمَا لَدَيۡهِ خُبۡرًا ۝٩١ ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ۝٩٢ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ﴾ وهما جبلان؛ سدَّ ذو القرنين ما بينهما

(السُّدّ): ما كان مسدوداً خِلقة، و(السَّدّ): ما سُدَّ بعمل العباد.

﴿بَيۡنَ﴾ ظرف وهو من الظروف التي تستعمل أسماءً وظروفاً فإذا كان موقعه الظرف فمحله النصب، وإذا خرج عن كونه ظرفاً فترد عليه حركات الإعراب كما في إضافته في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَ﴾ ، وارتفع على الفاعلية في قوله تعالى: { لقد تقطّع بينُكم}[2] في قراءة على أنه اسم.

قوله تعالى: ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوۡمٗا﴾ القول بأنهم التُّرك هو قول غير صحيح لأن الأمر كان قبل الترك بمدة كثيرة.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ قَوۡلٗا ۝٩٣﴾ أي: لا يَفهمون القول إلا بجهد من إشارة ونحوها وفي قراءة: {لا يُفقِهون قولاً}[3] أي: لا يُفْهِمون غيرَهم كلامَهم لأن لغتهم غريبة.

---

[1] وهي قراءة هشام عن ابن عامر رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

[2] قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ﴾ قرأه بنصب النون السادة القراء: نافع وأبو جعفر وحفص عن عاصم والكسائي وقرأ الباقي برفع النون ... رضي الله عنهم أجمعين

[3] وهي قراءة السادة: حمزة والكسائي وخلف العاشر رحمهم الله تعالى ورضي عنهم

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِنَّ يَأۡجُوجَ وَمَأۡجُوجَ﴾ وهما من ولد يافث بن سيدنا نوح عليه السلام، وهما اسمان عربيان مِن (التأجج)، و (تأجُّجُ النار) : اشتعالها وكثرتها.

أما المانع من الصرف فهو العَلَمية والوصفية لأنهما علمان على فئة معينة مع وصفهم بالكثرة.

وما يقال من أنهم أقزام، وأن أحدهم أُذُنُهُ فراش ويلتحف الأخرى فهو كلام باطل.

والدليل على أنهم من بني آدم عليه السلام، -وبنو آدم يتناقصون في الخِلقة والطول لكنهم لم يصلوا إلى طول الفتر- ما جاء في مسند الإمام أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ قُمْ فَابْعَثْ بَعْثَ النَّارِ.

فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، يَا رَبِّ وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟

قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ.

قَالَ: فَحِينَئِذٍ يَشِيبُ الْمَوْلُودُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: فَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَمِنْكُمْ وَاحِدٌ][1].

وفي رواية: [إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُنَادِيًا يُنَادِي: يَا آدَمُ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَبْعَثَ بَعْثًا مِنْ ذُرِّيَّتِكَ إِلَى النَّارِ، فَيَقُولُ آدَمُ: يَا رَبِّ وَمِنْ كَمْ؟

---

[1] ١٠٨٥٤

قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: مِنْ كُلِّ مِائَةٍ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ][1].

وهناك فرق كبير بين نسبة الواحد إلى الألف ونسبة الواحد إلى المائة وكلا الروايتين صحيحتان، والمعنى : بالنسبة للكفار هناك تسعة وتسعون كافراً ومسلم واحد، وبالنسبة لما يعم الكفار والعصاة من أهل جهنم فهم تسع مائة وتسعة وتسعون شخصاً، وهناك شخص واحد إلى الجنة -وهو المؤمن الكامل-.

وهذا الحديث يدل على أن يأجوج ومأجوج من بني آدم لقوله جل وعلا لآدم عليه السلام: [أَخْرِجْ نَصِيبَ جَهَنَّمَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ][2].. الحديث

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ (الخَرْجُ) و(الخَراج) بمعنى واحد وهو ما يخرج من المال، ونظيرهما (النَّول) و(النَّوال).

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾﴾ والردم أكبر وأضخم من السد.

---

[1] ٣٤٩٥

[2] طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٨٥٥٨

تنبيه

إن ما ورد في القرآن الكريم مِن أفعال منسوبة إلى الله تعالى، ولم يرِدْ في أسمائه سبحانه ما يشتق من هذه الأفعال من صفات فلا يجوز عند أهل السنة اشتقاق أسماء لله تعالى من هذه الأفعال.

وقد جوَّز المعتزلة ذلك، أما مذهب الإمام الغزالي ـ وهو الحق والله أعلم ـ فقد جوَّز ذلك على طريق الخبر فقط وليس على طريق الدعاء [1].

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فيصح القول -على وجه الإخبار-: (الله مُدْرِكُ الأبصار) ولا يعتبر هذا اسماً مِن أسمائه سبحانه، ولا يصح أن يقال -على وجه الدعاء-: (يا مدرك الأبصار)، وكذا في سائر الأفعال كالتي وردت في الآيات الكريمة: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾

---

[1] اختلف العلماء في أن أسماء الله تعالى توقيفية أم اصطلاحية؟

قال بعضهم: (لا يجوز إطلاق شيء من الأسماء والصفات على الله تعالى إلا إذا كان وارداً في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة)، وقال آخرون : (كل لفظ دل على معنى يليق بجلال الله وصفاته فهو جائز، وإلا فلا) ، وقال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى ورضي عنه: (الاسم غير، والصفة غير، فاسمي محمد، واسمك أبو بكر، فهذا من باب الأسماء، وأما الصفات فمثل: وصف هذا الإنسان بكونه طويلاً فقيهاً وكذا وكذا... إذا عرفت هذا الفرق فيقال: أما إطلاق الاسم على الله فلا يجوز إلا عند وروده في القرآن والخبر ، وأما الصفات فإنه لا يتوقف على التوقيف) .اهـ انظر تفسير الرازي ١/ ١٣٨

وإن أسماء الله تعالى كلها أسماء صفات إلا اسم ﴿ٱللَّه﴾ فهو عَلَم على الذات الإلهية، وهو جامع لجميع الأسماء الإلهية لأن الصفات لا تَنْفَكُّ عن الذات، وَصِفاته سبحانه -أي كمالاته- ذاتية له جل وعلا.

فكلمة ﴿ٱللَّه﴾ تدل على الذات الإلهية المتصفة بجميع الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه -والتي لا حد لها ولا انتهاء-.

وليس صحيحاً حصرُ الصفات الإلهية بسبع صفات لأن أسماء الله تعالى كلُّها أسماء صفات، وأسماؤه سبحانه غير متناهية؛ فصفاته -أي كمالاته جل جلاله- لا تتناهى، فافهم.

ولا تُنسَب إلى الله تعالى صفة (التعبير) كأن يقال: (هذا تعبير الله) أو يقال: (لقد عبّر الله عن هذا بقوله .....) لأن التعبير مأخوذ مِن العبور، يقال: (عبرت النهر) إذا قطعته من طرف إلى طرف، والعبور يحتاج إلى مركب، وعندما يريد الإنسان أن يعبّر عما في قلبه من معانٍ ويظهرها إلى بحر الوجود الكياني لا بد له من وسيلة لذلك -وهي الكلام المتكون من حروف صدرت عن مخارج معينة- وهذا هو التعبير إذ عبرت الكلمات من بحر المعاني إلى بحر الوجود الكياني على مركب مؤلف من اللسان والشفتين وغيرهما من مخارج الحروف، وتعالى الله أن يكون كلامه يشبه كلام المخلوقات من حرف أو نحوه.

ويصح أن يقال: (إن القرآن الكريم عبَّر عن كذا) أو يقال: (إن الآية تعبِّر عن كذا) -على وجه المجاز- كما يصح أن يقال: (إن رسول الله ﷺ هو المعبِّر عن الله والناطق عن الله)[1].

ويصح أن تقول: (لقد بيَّن اللهُ تعالى على لسان رسوله ﷺ) ثم تذكر ما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث تتعلق بالأمر الذي تريد بيانه..

ونظير هذا قولك: (لقد حذَّر اللهُ على لسان رسوله ﷺ) أو قولك: (لقد وعد اللهُ على لسان رسوله ﷺ) وهكذا .....

ودليل هذا قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ أي لعن اللهُ الذين كفروا على لسان داود وعيسى ابن مريم عليهما السلام.

ولا يصح أن تقول: (قال الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم) ثم تذكر آية من كلام الله تعالى.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذِكره الغافلون، والحمد لله رب العالمين.

---

[1] يقال: (عَبَرْتُ الرؤيا) أو (عبَّرتها) أي: فسَّرتها وكشفتُ عن معناها بكلام.. كما ورد في الآية: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ٤٣﴾ و(العبرة): الموعظة، و(الاعتبار): الاتعاظ والتذكر... قال تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢﴾

كُتُب للمُؤَلِّف

* حول تفسير سورة الفاتحة -أمّ القرآن الكريم.

* حول تفسير سورة الحجرات.

* حول تفسير سورة ﴿قٓ﴾.

* حول تفسير سورة المُلْك.

* حول تفسير سورة الإنسان.

* حول تفسير سورة العلق.

* حول تفسير سورة الكوثر.

* حول تفسير سورة الإخلاص والمعوِّذتين بعدها.

* هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.

* هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.

* تلاوة القرآن المجيد: فضائلها -آدابها -خصائصها.

* شهادة (لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ﷺ):

فضائلها -معانيها -شواهدها ومشاهدها -مطالبها.

* سيدنا محمد رسول الله ﷺ: خصاله الحميدة -شمائله المجيدة.

* الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.

* التقرب إلى الله تعالى: فضله -طريقه -مراتبه.

* الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدين -فضائلها -آثارها -آدابها.

* الصلاة على النبي ﷺ: أحكامها -فضائلها -فوائدها.

* صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.

* الدعاء: فضائله -آدابه -ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.

* الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.

* الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن.

* حول ترجمة المرحوم الإمام العلّامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه.

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء، ومعها استغاثات.

* مناسك الحج، ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها.

* الصيام: آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

مِن آثار الشيخ الإمام

* محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم.

* محاضرات حول الإسراء والمعراج: آثاره -فضائله -أسراره.

*محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.

* دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم.

* محاضرات حول عالم الجنة: مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -الجزء الأول.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالَم في الوعظ والتذكير -الجزء الثاني.

* محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم -موقف تعليم الكتاب -الجزء الثالث.

* محاضرات حول مقامات أهل الإيمان -الجزء الرابع.

* محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرّمة إلى المدينة المنوّرة.

* محاضرات حول تفسير خواتيم سورتَي البقرة وآل عمران والمعوِّذات وأذكار بعد الصلوات.

* محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

* مجالس الحديث النبوي الشريف: الأجزاء الخمسة.

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل كتب الإمام بصيغ متعددة

قَبَسات من المؤلفات

* الكلام حول الأدلة على أنه (لا إله إلا الله وحده).
* حُكْمُ أَبَوَيْ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلم الشَّريفَين.
* أربعون حديثاً من جوامع كلِم النبي ﷺ.
* شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة.
* التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ.
* رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم.
* عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله.
* حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ.
* سبب وجود بعض الأحاديث -التي فيها ضَعْفٌ- في مؤلَّفات الإمام.
* سبب ذِكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).
* البشائر الغُرَر للمكثرين من الصلاة على سيد البَشر ﷺ.
* آثار الزكاة وأنوارها، وعقاب مانع الزكاة.
* صلاة الاستخارة ودعاؤها.
* وصول الثواب إلى الأموات.
* معاني الصلاة الإبراهيمية.

وتجدونها -وغيْرها- متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام:

www.srajalden.com

في قسم: كُتُب الإمام - تحميل أبحاث مختارة من كتب الإمام